المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية

الأقليّات اليهوديّة بين التجارة والادعاء القومي

١٩٧٥

دكتور عبد الوهاب المسيري

الأقليات اليهودية بين التجارة والادعاء القومي

مقدمة

بدأت الدراسة التي يضمها هذا الكتاب أثناء قيامي بإعداد موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية . ولكن نظراً لأهمية هذه الدراسة رأيت أن تكون موضوعاً للمحاضرات التي ألقيها على طلاب الدراسات الفلسطينية بمعهد البحوث والدراسات العربية خلال العام الدراسي ١٩٧٤/١٩٧٥ . وقد أتاح لي ذلك فرصة التعمق في دراسة بعض القضايا التي عرضت لها عرضاً سريعاً في الموسوعة ، فطورتها وأضفت لها وصححت بعض ما ظهر لي خطأ فيها . ومن ثم فقد يظهر بعض التكرار بين ما نشر هنا وما هو موجود في الموسوعة ، ولكن يشفع لي في ذلك أهمية الموضوع محل الدراسة والبحث وإن كان هذا التكرار لا يتجاوز بأية حال بعض النقاط المحدودة .

وينقسم هذا الكتاب إلى جزئين رئيسين : أحدهما يعالج تاريخ اليهود في أوروبا ، والآخر يبحث في الإدعاءات القومية الصهيونية . ورغم انفصال الموضوعين ، وإعدادهما كدراستين منفصلتين ، إلا أنه ثمة ارتباط بينهما ؛ فوضع الأقليات اليهودية وعلاقتها الخاصة بمسار التاريخ الأوروبي هما اللذان أديا في نهاية الأمر إلى ظهور الإدعاءات القومية الصهيونية . ومع ذلك فنحن لا ندعي أنه ثمة ضرورة منطقية لوجود البحث الأول

بجوار البحث الثانى فى كتاب واحد ، ولهذا قسمنا الكتاب إلى قسمين .

وختاماً أرى أن أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور صفى الدين أبو العز والأستاذ الدكتور عز الدين فوده لتكرمهم بدعوتى للتدريس فى المعهد وإلقاء هذه المحاضرات التى أتاحت لى مجالاً متجدداً فى الدراسة والبحث .

دكتور عبد الوهاب المسيرى

دمنهور (والقاهرة) ١٩٧٥

القسم الأول

الأقليات اليهودية والتجارة فى أوروبا

تمهيد

تضخم كتب الدعاية الصهيونية دور العبقرية اليهودية فى الحضارات العالمية ودورهم فى الحضارة الأوروبية بالذات . والحديث عن العبقرية اليهودية هو فى جوهره حديث عنصرى ، معاد للسامية يفترض ان اليهودى يوجد خارج مجتمعه ولا ينتمى اليه وأنه له دور متميز يلعبه «كيهودى» وليس كمواطن فى بلده ولكننا لو نظرنا إلى اسهام اليهود فى الحضارة الأوروبية لوجدنا أنه اسهاما «أوروبيا» أولا وأخيرا ، ويظل العنصر اليهودى فرعيا ثانويا إلى حد كبير ، ولا يمكننا ان نفهم أعمال وانجازات المفكرين والفنانين اليهود إلا بالاحاطة بالتقاليد الحضارية والمواضعات التاريخية (الأوروبية) التى شكلت فكرهم وفنهم . فلو نظرنا مثلا لاشعار هاينى لوجدنا انفسنا فى حضرة شاعر ألمانى من شعراء القرن التاسع عشر الذين يترنمون بالطبيعة ويتحدثون عن اغتراب الشاعر فى مجتمع الصناعة والمال . اما قصص ايليا إهرنبورج فهى قصص كتبها كاتب سوفييتى يعبر عن الام وامال الشعب السوفيتى متأثرا باساليب القصة الروسية الكلاسيكية اما قصص برنارد مالامود القصاص الأمريكى اليهودى فهى تنتمى إلى التراث الأدبى الأمريكى لأن كاتب هذه القصص قد تأثر بتقاليد هذا الادب واتقن اللغة الأنجليزية الأمريكية وكتب روايات أمريكية تعالج موضوعات أمريكية يهودية . وقد صرح الفنان شاجال مرة لمجلة «تايم» بأنه غير مهتم باليهودية فقامت الدنيا ولم تقعد وارسل كثير من القراء برسائل احتجاج اوضحوا فيها تأثر شجال باليهودية الحسيدية . وقد يكون هذا أمرا صحيحا ، ولكن يظل شاجال هو نتاج الحركات الفنية فى أوروبا فى القرن العشرين وبخاصة

فى روسيا وفرنسا ، وقد تكون للوحاته «نكهة حيدية خاصة تحببه للنفس وتزيد من اندهاشنا بروائعه ، وقد تعالج هذه اللوحات موضاعا يهودية مثل «التوراه» «والحاخام» ولكنها تظل مع هذا لوحات رسمها فنان روسى فرنسي (١). وإذا ما تركنا مجال الفنون والانسانيات يصبح الحديث عن «العبقرية» اليهودية المنفصله عبثا وهراء لا طائل من ورائها ، فبأى معنى يمكننا القول ان نظرية النسبية التى توصل اليها اينشتاين «يهودية» وكأن من الممكن أن يصل اينشتاين إلى ماوصل اليه من اكتشافات باهرة دون جهود من سبقه من علماء مسيحيين وبوذيين ؟ والا بم نفسر عدم ظهور علماء طبيعة متفوقين تفوق اينشتاين بين يهود الفالاشاه الاحباش ؟

ويلاحظ زيادة عدد المتعلمين والمخترعين الذين يظهرون من بين الاقليات اليهوديه فى أوروبا ، ولكن هذا أمر طبيعى وينطبق على كل الاقليات فى أى مكان حينما تتاح أمامها الفرصة ، فالاقلية دائما راقعه تحت ضغط نفسى شديد يدفعها إلى ان تثبت تفوقها أمام نفسها وامام الاخرين ، ولذلك يجهد اعضاؤها أنفسهم فى المساهمة فى الخلق الحضارى بدرجة تزيد عن المعدل العادى فى المجتمع ، كما ان عضو الأقلية عادة ما يكون عنده عقلية نقدية فى رؤيته للمجتمع لانه على علاقة خاصه به . ولكن مع هذا يخضع اعضاء الاقلية لدرجة تقدم وتخلف المجتمع الذى يعيشون بين ظهرانيه فان تقدم تقدموا ، وان تخلف صاروا من المتخلفين .

ولو نظرنا إلى تاريخ الاقليات اليهودية فى شرق أوروبا التى نبتت الصهيونية بينها لوجدنا انها كانت أكثر القطاعات تخلفا فى أوروبا ، فقد كانت الجماهير اليهودية وقيادتها غارقة حتى اذنيها فى التأملات القبالية الصوفية المضحكة التى يشمئز منها أى انسان عاقل ، وكانت الحياة العقلية فى الجيتو

---

(١) تجدر الاشارة فى هذا المضمار إلى أنه لا توجد تقاليد فنية يهودية .

أمرا يثير الخجل الانسانى (باعتراف الصهاينة وأى دارس موضوعى أو متحيز) فعلى حين كانت أوربا تعيش أروع أيامها فى عصر النهضة ثم عصرا الاستنارة كان يهود الجيتو يدرسون التلمود ويحاولون حساب متى تحل أخرة الايام .

وحتى لو رصدنا العبقرية اليهودية بشكل مطلق كما يفعل الصهاينة فأننا سنكتشف ان اليهود كأقليات متناثرة لم يقوموا بدور كبير فى خلق الحضارة ، فحينما ظهروا على مسرح التاريخ عام ١٢٠٠ ق . م كرعاة رحل كانت الامبراطورية الفرعونية قد شيدت مئات المعابد والاهرمات والسدود ، وكان الفن المعمارى وعلوم الفلك المصريان قد تتنازعها الامبراطوريات المختلفه المجاورة لها . وعلى مستوى الادب والفن والفكر لا توجد أى مساهمة حقيقة من جانب اليهود القدامى فى تراث العالم القديم ، بلى وان اسلوب الهيكل المعمارى ، الذى قام الفينيقيون ، ببنائه هو الاسلوب الأشورى الفرعونى ، وكان بناء الكبارى والسدود امرا غير معروف البته لليهود القدامى ، وحتى الكتابات اليهوديه المقدسة مثل سفر التثنية وسفر الجامعة متأثرة تأثراً عميقا بالحضارة . ولايأتى ذكر لليهود فى الكتابات الاغريقية أو الرومانيه الا كمصدر ضيق لكتاب مثل شيشرون وهوارس كما لانجد فى أدب وحضارة العصور الوسطى أو عصر النهضة فى أوروبا مفكرا أو رساما أو أديبا يهوديا واحد ، وحتى المفكرون اليهود الذين ظهروا ابان هـــذه الفترات الطويلة مثل الحاخام راشى كانوا مهتمين بأمور دينية يهودية ذات اهمية انسانية محدودة . وما من شك فى أن أقتصار نشاط اليهود على نشاطات انسانية معينة دون غيرها أمر طبيعى للغاية من اقلية تشتغـــل بالتجارة بالدرجة الاولى منعزلة اقتصاديا بسبب مهنتها ووجدانياً بسبب تراثها الدينى ؟ والواقع أننا لانبدأ نسمع عن مساهمة اليهود فى الحضارة الامم بدايات

ظهور الرأسمالية ، ولعله ليس من قبيل المصادفة ان سبينوزا اول فيلسوف يهودى عالمى قد ظهر فى هولندا مهد الرأسمالية الحديثة ومهد التفكير اليهودى الحديث فى الغرب . وقد ظل المفكرون اليهود يساهمون فى خلق الحضارة الاوروبية كاوروبين اولا واخيرا اى ان « يهودية » المفكر والعبقرى لم تكن هى العنصر الاساسى مساهماته . ثم زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثوريه فى الغرب والشرق لانها فتحت المجال امام اليهود ، ومع هذا ظلت مساهمتهم « غير يهودية » ذات طابع إنسانى عام .

ولكن نلاحظ مع نهاية القرن التاسع عشر فى أوروبا ان اسهام بعض المؤلفين والرسامين اليهود اصبح له طابع يهودى قوى ويستمد بناءه ومضمونه من وضع «العبقرى اليهودى» . ومما زاد من انتشار الاهتمام باليهود والموضوعات اليهودية فى الغرب فى الاونة الاخيرة انتشار التيارات العدمية و العبثية فقد وجد بعض الكتاب الغربيين (اليهودو المسيحين) ان اليهودى التائه هو رمز الاغتراب الازلى ، الذى يقف على حافة التاريخ شاهدا عليه ، وأكتشف هؤلاء الكتاب ايضا ان اليهودية هى دين الاغتراب والعبث وانها ديانة صوفية حلولية الامر الذى يؤهلها لاتكون وسيلة ناجحة يستخدمها انسان المجتمعات الاستهلاكية للتغلب على اغترابه . ولكن حتى بعد ظهور شخصية « العبقرى اليهودى » مثل كافكا وفرويد فان العنصر اليهودى فى العبقرية لا يتعدى كونه عنصرا واحدا ضمن عناصر اخرى مركبة ، اذا يظل فرويد وكافكا ظاهرتين اوربيتين ولا يمكننا بالطبع انكار ان وقوع كافكا تحت تأثير الغيبية الصهيونية (وقد اشترك فى احدى المؤتمرات الصهيونية) دعم بلاشك من الاتجاهات العبثية والعدمية عندة ، كما لا يمكننا انكار ان إنغماس فرويد فى التراث القبالى بتركيزه على العنصر السكونى فى الانسان وعلى تحويله كل رموز السكون إلى رموز جنسية ، قد أثر ولا شك على فكره ونبهه إلى أهمية العنصر السكونى الجنسى فى الذات البشرية إلا أن العنصر « اليهودى » فى عبقريتهم مع هذا هو الجزء وليس الكل . ولذا يمكننا دراسة نظريات فرويد دون

معرفة باليهودية ، كما أننا يمكننا أن ندرس فن كافكا دون أن نغوص فى فهم علاقة اليهود بالخالق . ولعل هذا الموقف يفسر سر احتكار اليهود للدراسات اليهودية والاسرائيلية فى الغرب ، فاليهودية بالنسبة للمثقف الغربى هى رافد فرعى لايقاس فى أهميته بأية حال بالتراث اليونانى الرومانى أو التراث المسيحى . ولهذا تظل الغالبية الساحقة من المتخصصين فى العالم الغربى فى الشئون اليهودية والصهيونية والاسرائيلية أما من اليهود أنفسهم أو من الكتاب الشعبيين الذين يبغون النجاح السريع . وإلى جانب هذين الفريقين يوجد العلماء الانجيليين الذين ينصب اهتمامهم على اليهودية كدين وكنسق لاهوتى وليس كتراث حضارى أو انجاز تاريخى ، وقد أدى هذا الوضع بطبيعة الحال إلى خلق جيتو اكاديمى يصعب اختراقه .

ولكننا كعرب نجد أنفسنا مضطرين لدراسه تاريخ الاقليات اليهودية فى أوروبا لأن هذا فى نهاية الأمر سيعطينا مفتاحا لفهم المسألة اليهودية والظاهرة الصهيونية . ولولا وجود اسرائيل فى الشرق العربى لما اهتممنا قط بوضع هذه الأقليات ، فلو لم توجد اسرائل فى الشرق ماذا كان يضطرنى أن أدرس اقتصاديات الربا فى أوروبا فى العصر الوسيط بدلا من التركيز على تطور المجتمع الاقطاعى ككل ؟ وماذا كان يلزمنى بقراءة كتاب الزوهار القبالى بدلا من أعمال القديس أوغسطين ؟ ولم أقرأ اشعار بياليك (شاعر من الدرجة الثالثة) بدلا من اشعار بوشكين ووردزورث ؟ .

أن الحضارة الاوروبية شيء رحب وفسيح ، يجب أن ادرسه واستوعبه كعربى لأتعرف على ذاتى وعلى الحضارة الأوروبية — هذا الطرف الآخر الذى اتحاور معه منذ نهاية القرن التاسع عشر ويظل اهتمامى باليهود واليهودية فى أوروبا منفصلا عن اهتمام محورى مع هذه الحضارة . وفى اطار هذا التعرف والتحديد لطبيعة اهتمامنا بتاريخ الاقليات اليهودية فى أوربا يمكننا أن نستكشف بعض جوانب هذا التاريخ .

الفصل الأول

مدخل لدراسة التاريخ الاقتصادى
للاقليات اليهودية فى اوروبا

أولا — التجارة

ارتبط التاريخ الاقتصادى للاقليات اليهودية فى أوربا بمهن معينة مثل التجارة والربا ومن الضرورى فى البداية أن نوضح زيف بعض الاوهام الشائعة عن علاقة اليهود بهاتين المهنتين ، فعلى سبيل المثال لم يشتغل اليهود بهما بسبب« طبيعتهم الخاصة » كما يدعى المعادون للسامية ، ولا لأن المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها فرضت عليهم ذلك عنوة (كما يدعى الصهاينة) فمن الثابت تاريخيا أن كثيرا ماوجد بعض أثرياء اليهود أنفسهم مالـكين أرضا زراعيه ، أما عن طريق التجارة أو الربا ، ولكنهم مع هذا كانوا يبعونها ، مع أنه لم يكن محرما على اليهود امتلاك الأراضى الزراعية والعمل فيها فى كثير من نواحى أوروبا . وكان كثير من اليهود يعملون بالزراعة فى الأيام الأولى من الاستيطان فى أوربا ، بل أنه كان هناك دائما عبر مراحل التاريخ الأوربى جماعات يهودية مرتبطة بالزراعة . وقد استمر اشتغال اليهود بالزراعة حتى بعد اشتغالهم بالتجارة والربا ولكنهم انصرفوا عن أنواع الزراعة التى تستلزم جهدا خاصا لفلاحة الارض وزراعة المحاصيل التقليدية ، واشتغلوا بأنواع معينة من الزراعة تتطلب مهارات خاصة مثل زراعة الـكروم المرتبطه بصناعة الخمور وشجارتها . ونحن قد ركزنا على اشتغال اليهود بالتجارة واستبعدنا غيره من العناصر لا لأن اليهود يعملون بالتجارة بشكل مطلق ، وانما لأن تطور اليهودية فى عصور لاحقة (خاصة

فى شرق أوروبا) قد خلق من اليهودية أقلية اقتصادية تعمل بهذه المهنة ، وقد نشأت الصيونية نتيجة لهذا التطور الخاص . واهتمامنا بتاريخ الاقليات اليهودية ينصب على علاقته بمسار الحركة الصهيونية .

ولقد سيقت أسباب عدة لتفسير ابتعاد قطاعات من اليهود عن الزراعة واشتغالهم بالتجارة . فيقال أن اليهود كانوا مضطرين لبيع أراضيهم الزراعية لأنه كان محرما عليهم استئجار ارقاء مسيحين لزراعة الأرض ، وفى الوقت ذاته حرمت عليهم الشريعة اليهودية استئجار ارقاء يهود — الأمر الذى جعل الملكية الزراعية أمرا غير مثمر بالنسبة لليهودى . ويقال كذلك فى مضمار تفسير هذه الظاهرة أن تحريم العمل يوم السبت على اليهودى وتحريمه يوم الأحد على المسيحى جعل من المستحيل التعاون بينهما لأن هذا يعنى اجازة أسبوعية مدة يومين مما يجعل النشاط الزراعى غير مربح . ومن الأسباب الأخرى التى سيقت أن الطبيعة الطائفية للجماعة اليهودية وضرورة القيام بالطقوس الدينية جعلت من الأفضل لليهود الابقاء على الصلات الدائمة بينهم للقيام بالطقوس الدينية التى لا يسهل القيام بها فى ظروف الوحدات الريفية المتباعده . وقد أوجد هذا البنيان الدينى المتميز اتجاها طبيعيا بين القادمين الجدد نحو البقاء فى المستعمرات التى كان قد أقامها أبناء ملتهم . ولكن مثل هذه الأسباب قد يفسر سرعة انتشار الظاهرة ولكنها لا تفسر بأية حال أسباب ظهورها ، كما أن ما يتصور أنه سبب قد لا يكون ألا تعبيرا عن واقع قائم بالفعل ، فهنالك تحريمات دينية كثيرة بخصوص الربا التى بها اليهود عرض الحائط واصدار الحاخامات فتاوى كثيرة لتبرير الموقف واضفاء الشرعية الدينية عليه . ولهذا يجب أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التى أدت إلى اشتغال كثير من الاقليات اليهودية فى العالم بالتجارة ولابد من عرض تاريخى سريع للتوصل لهذه الأسباب .

ورد ذكر اليهود لأول مرة فى التاريخ المدون على الواح تل العمارنة على أنهم بدو رحل يقومون بالرعى والتجارة ، وقد كان للبدو فضل كبير على تطور العلاقات التجارية فى فلسطين إذ أنه بفضل وجودهم قرب الحدود المأهولة باستمرار وعلى طول الطرق الرئيسية كانوا قادرين على حمل السلع من وطن لآخر ، ويبدو أنهم بعد استقرارهم فى فلسطين وامتزاجهم بالكنعانيين لم يتخلوا عن هذه المهمة بحكم موقع فلسطين الجغرافى كطريق للمواصلات بين القارات الثلاث . ولكن مع هذا لم يساهم العبرانيون مساهمة كبيرة فى التجارة بسبب التركيب القبلى لمجتمعهم واقتصادهم المكتفى بذاته ، كما أن سكان البلاد الاصليين كانوا يعوقونهم عن الوصول إلى شرايين التجارة . وقد ظلت المملكة الفلستية ممتدة على طول معظم ساحل للبحر الأبيض المتوسط مما عاق العبرانيين عن الوصول إلى مركز التجارة فى العالم الغربى ، ولهذا نجد أن شرائع التوراه لاتشير كثيرا إلى التجارة ولكن مع بداية تكوين المملكة العبرانية اشترك العبرانيون فى أوجه النشاط الاقتصادى والعالمى خاصة فى عصر الملك سليمان ، ويبدو أن الملكية مارست نوعا من الاحتكار فى ذلك المجال الاقتصادى . وقد كانت تجارة سليمان الملك أساسا تجارة بحرية اشتركت فيها سفن الملك سليمان التى ساعد فى بنائها الصوريون (نسبة إلى صور) ، كما شغلت المقايضة أيضا مكانا فى نشاط سليمان الاقتصادى ، وقد بلغت مملكة سليمان اليهودية أوج مجدها بسبب ازدهار التجارة فى عهده .

ويبدو أن اهتمام اليهود بالتجارة قد استمر بعد تقسيم المملكة العبرانية ففى عهد الملك أومرى ، مؤسس مملكة يسرائيل (افرايم) والذى حكمها من ٨٨٧ ق . م حتى ٨٧٦ كانت توجد وكالات آرامية فى ساماريا ، وفى أيام اهاب كانت توجد وكالات فى دمشق . ويقال أن الاتجاهات الاقتصادية لتنمية التجارة فى مملكتى يسرائيل ويهودا تتضح فى الاطماع

التوسعية لهذه المملكة ، التى كانت تهدف فى حقيقة الأمر إلى السيطرة على طرق التجارة فى تلك المناطق والتحكم فيها . وقد عمق السبى البابلى من اتجاه اليهود نحو الاشتغال بالتجارة ، إذ اشتغل كثير من « المنفيين » بهذه المهمة وتحولوا لأقلية اقتصادية لأنهم كانوا « غرباء » على المجتمع البابلى وليس لهم جذور فيه وليس لهم أى علاقة بالأرض أو بمهنة الزراعة — وهى مهنة مقصورة فى الغالب على السكان الأصليين ، وكانت إحدى ثمار السبى البابلى تأسيس جماعة يهودية خارج فلسطين ، ثم تبع ذلك تأسيس جماعات أخرى فى الاسكندرية وروما وفى أنحاء العالم القديم الأمر الذى جعل اليهود مؤهلين لأن يتطلعوا بدور التجارة الدولية فى هذا العالم ، لأنهم كونوا بذلك أول نظام ائتمانى عالمى يسهل عملية انتقال التاجر من بلد إلى بلد ، وييسر عمليات التبادل التجارى وينظمها ، ويقال أن الخزرج حين أرادوا الاشتغال بالتجارة اعتنقوا اليهودية حتى يتمكنوا من الاستمتاع بالتسهيلات الائتمانية التى يتمتع بها اليهود بسبب « شتاتهم » فى العالم .

وقد لعب اليهود دوراً كبيراً لا فى تجارة العالم القديم فحسب بل أيضاً فى التجارة بين العالم الإسلامى وأوروبا ، كما أنه بانقسام العالم الوسيط إلى قسمين واحد مسيحى والآخر مسلم ، أصبح القيام بالعمليات التجارية بينهما أمراً صعباً للغاية بسبب اختلاف الشرائع الدينية وبالتالى القوانين التجارية والمدنية ، وبذا أصبح اليهودى هو حلقة الوصل ، لأن مختلف الأقليات اليهودية فى العالم تدين بنفس الدين وتتبع نفس القوانين التى تحكم نشاطات دنيوية مثل التجارة والربا . كما أن اليهود كانوا يجيدون عدة لغات مما جعل من اليهود عليهم اختراق الحاجز اللغوى (وقد عثر فى جنيزه معبد القاهرة فى الفسطاط على وثائق مكتوبة بعدة لغات) : ومما ساعد أيضاً على سرعة تحول اليهود إلى التجارة أن انتشار الإسلام فى الشام أدى إلى اختفاء التجار السريانيين مما ترك اليهود بلا منافس فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، هكذا أصبحت التجارة الدولية عملا تخصصوا فيه وكادوا يحتكرونه قبل

القرن الحادي عشر ، وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الأنسجة والتوابل وبعض السلع الأخرى . ولم يكن من قبيل الصدفة أن اللغات التي تحدثت بها الأقليات اليهودية عبر تاريخها مثل العبرية والارامية واليديشية كانت هي دائماً لغة التجارة الدولية . وقد ساعد وجود هذه اللغات المشتركة على تقريب الجماعات اليهودية البعيدة عن بعضها وعلى تيسير العمليات التجارية بين بلد وآخر .

ولكن من أهم السلع التي كان يتاجر فيها اليهود عبر تاريخهم الاقتصادي هي تجـــارة الرقيق ، واليهودية لا تحرم الرق (وإن كانت تحرم استعباد اليهودي لليهودي لمدة تزيد عن ستة أعوام) وتوجد في التلمود أجزاء طويلة تؤكد أن العبيد لا حقوق لهم لأنهم ليسوا ببشر ، بل ولا يحق للعبد أن يصلي مع اليهودي ولا يحق لليهودي أن يصلي على العبد إن مات . وقد زجر أحد الحاخامات تلميذاً له لأنه صلى على عبد ميت قائلا : « ألم أعلمك عند موت عبد من الذكور أو الأناث : إننا لا نقف في صف من أجلهم ، ولا نصلي من أجل موتاهم . ولكن ماذا تقول مع ذلك من أجل موتاهم ؟ تقول ما تقول لرجل عند موت ثور ، أو حمار ، « فليعوضك الرب عن خسارتك » . وعلاوة على ذلك توجد أجزاء في التلمود تقنن لتجارة العبيد ، كما يوجد « عقد شراء عبد » يمكن استخدامه في عقد الصفقات .

واشتغال اليهود بتجارة الرقيق كان أمراً منطقياً لأن تجارة الرقيق كانت أهم فروع التجارة الدولية في العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، إذ أن إحدى السلع القليلة التي كانت أوروبا تصدرها لحوض البحر الأبيض المتوسط للدولة البيزنطية ثم الإسلامية فيما بعد هي الخصيان ، وعن طريق هذه السلعة كانت تستعيد إلى حد ما التوازن في ميزان المدفوعات .

ويذكر ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك أن العبيد من الخصيان كانوا ضمن السلع التي كان يبيعها التجار اليهود . كما سجل إبراهيم بن

يعقوب ، الرحالة اليهودى ، وجود تجار يهود عبيد فى براغ حوالى عام ٩٧٠ ، ولم يتوقف التجار اليهود بالرقيق عبر التاريخ ففى العصر الحديث كان يهود المارانوس فى العالم الجديد (خاصة فى منطقة البحر الكاريبى) يستهلكون ويتاجرون فى عبيد أفريقيا والهند . وقد احتفظت الشركة الهولندية الغرب ـ هندية حتى عام ١٧٣٠ بحق احتكار جلب العبيد من المستعمرات الهولندية فى الأمريكتين ، ويبدو أن اليهود كانوا هم تجـار التجزئة الأساسيون للعبيد فى البرازيل الهولندية (١٦٣٠ــ ١٦٥٤) لأن اليهود كان يتوفر لديهم المال السائل وكانوا على استعداد أن يقايضوا العبيد مقابل السكر .

وفى شمال أمريكا ، كان هناك عدداً من اليهود يشتركون بصورة فعالة فى التجارة ذات الأطراف الثلاثة ، والتى كانت تجلب عبيداً من أفريقيا إلى غرب الهند ، حيث كانت تتم مقايضتهم فى مقابل العسل الأسود ، الذى كان يؤخذ بدوره إلى نيوانجلاند ويتم تحويله إلى روم يباع فى أفريقيا. واشترك دافيد فرانكس من فيلادلفيا فى هذه التجارة فى أول الستينات من القرن الثامن عشر . وكان لكل من هارون لوبيثى ويعقوب رودريجز وريفيرا من نيوروبرت وود ايلاند سفينة واحدة على الأقل فى أعالى البحار كل عام ابتداء من عام ١٧٦٤ . وفى عامى ١٧٧٢ و ١٧٧٣ كان لهم ثمانى سفن نخاسة لجلب العبيد ، وكا إسحق داكوستا من شارلستون يعتبر أحد كبار مستوردى العبيد . وفى لويزيانا، وتحت الحكم الفرنسى والأسبانى كان الأخوة ، مونسانتو يقومون بصفقات كثيرة فى تجارة العبيد ، وفى خلال عام ١٧٨٧ قاموا بشراء ٤٤ زنجياً .

وبعد قيام حركة إلغاء تجارة الرقيق،واصل التجار والدلالون والسماسرة اليهود فى الولايات الجنوبية شراء وبيع العبيد حتى نهاية الحرب الأهلية . ومما يدل على عدم شعور يهود الجنوب بالخجل من تجارة الرقيق أن كلا من يعقوب لفين من كولومبيا فى ولاية جنوب كارولينا وإسرائيل

ى : جونز من موبيل فى ولاية ألاباما — وهما تاجران كثيراً ما قاما بصفقات فى تجـارة العبيد — كانا مع ذلك قادة لمجتمعاتهم اليهودية فى الخمسينات من القرن التاسع عشر . (ولكن حتى لا تعطى انطباعاً خاطئاً لابد من الإشارة إلا أن كثيراً من المفكرين الإنجليز والأمريكان فى حركات تحرير الرقيق فى القرن التاسع عشر كانوا من اليهود) .

ارتبط اليهود إذن بالتجارة من جميع الأنواع إلى أن أصبحت كلمة « تاجر » مرادفة لكلمة « يهودى » حتى أن كثيراً من الدول التى كانت تريد إنعاش حركة التجارة فيها كانت ترسل فى طلب بعض اليهود حتى يقوموا بدور الوسيط وينشطوا الحركة التجارية التى يعجز المجتمع الزراعى بتنظيمه الجامد التقليدى أن يقوم بها . ولهذا السبب كان ينص أحياناً فى المعاهدات على تبادل اليهود . فقد اشترطت رافنا إذناً فى معاهدة عقدت مع البندقية فى أواخر العصور الوسطى ، أن ترسل المدينة الأخيرة بعض اليهود ليقوموا بالأعمال المصرفية والتجارية فيها، وقد كان الملوك يحاولون الحفاظ على اليهود كجزء من اهتمامهم بالتجارة والحركة التجارية وقد بلغ الترادف بين كلمة « يهودى » وكلمة « تاجر » درجة طريفة ، إذ يقال أنه حينما ظهرت طبقة تجار مسيحية فى بولندا حاول المستهلكون تشجيعهم على حساب التجار اليهود فأخبرت أم إبنها أنه ينبغى أن يشترى ما يريد من التاجر الجديد وليس من « اليهودى اليهودى» باعتبار أن كلمة « يهودى » الأولى تعنى « تاجر » ولكن احتكار اليهود لتجارة الجملة والتجارة الدولية لم يكن مطلقاً إذ أنه تحت ضغط ظروف اقتصادية نابعة من بنية المجتمع ككل ومن بناء التجارة اليهودية ذاتها كان من الممكن دائماً كسر هذا الاحتكار . فنظام التجارة الوسيط — شأنه فى هذا شأن نظام الزراعة الوسيط ونظام امتلاك الأراضى — كان يضيق الخناق على اليهود ، إذ بعد مدة من الزمن صارت عمليات البيع والشراء فى كل مدينة مقصورة على نقابة التجار ، ولم يكن لأى غريب الحق فى أن يدخل فى منافسة معها . ولكن مع هذا ،

لعل بناء التجارة اليهودية ذاته هو الذى يسر عملية كسر احتكار اليهود للتجارة الدولية والمحلية .

فالتجارة التى اشتغل بها اليهود هى ما يعرف باسم « التجارة البدائية » وهى تختلف عن التجارة الحديثة من عدة وجوه ، فالتجارة الحديثة هى جزء عضوى رأساسى فى نظام المجتمع الرأسمالى ، أما التجارة البدائية فهى تلعب دوراً ثانوياً وهامشياً فى المجتمعات ما قبل الرأسمالية (عبودية وإقطاعية) . فالإنتاج فى هذه المجتمعات هو إنتاج « لقيمة استعمالية » وليس « لقيمة تبادلية » ، فقد كان نظام الإنتاج موجهاً نحو إشباع حاجات المجتمع وحسب . وبعد أن يستهلك المجتمع ما يريد قد يبقى فائض من السلع يقوم التاجر البدائى تنقله من هذا المجتمع لمجتمع آخر كما أنه فى داخل المجتمعات ما قبل الرأسمالية كانت تنشأ حاجة لبعض السلع الكمالية (مثل التوابل والذهب) فكان التاجر البدائى يقوم بتوريدها وسد الحاجة التى تنشأ إليها ، أن التاجر اليهودى لايوظف امواله فى الانتاج كما كان يفعل التجار المسيحيون فى مدن العصور الوسطى الكبيرة ، فقد كان لايشترى مواد أولية ولاينفق على صناعة الأقمشة جزاء من رأسماله ، اذ انه لم يكن سوى « وسيط » اى ان التجارة اليهودية لم تكن تنطوى على أسلوب انتاج معين تنتج فائض فيه وانما كانت تعيش على فائض القيمة الذى ينتجه الفلاحون . وبهذا المدلول يمكن اعتبار التجارة البدائية « هامشية » بالمعنى الحرفى للكلمة لانها لم تلعب أى دور فى حركة الإنتاج وانما ظلت على هامشها . وبظهور التجارة الحديثة المرتبطة بالعملية الانتاجية ذاتها (كأن ينتج بعض الحرفيين أنواعا معينة من النسيج بهدف بيعها) بدأت التجارة البدائية فى الاختفاء ومن المعروف ان البندقية وجنوا وهما من اوائل المدن الاوروبية التى ظهرت فيها طبقة تجارية نشطة حاولت قدر استطاعتها ان توقف التجارة اليهودية . وساهمت الحروب الصليبية — وهى أول تعبير عن ارهاصات الرأسمالية الاوروبية الأولى فى القرنين الثانى والثالث عشر — فى القضاء على كثير من مراكز التجميع التجارى

اليهودى فى أوروبا ، خاصة وان هذه الحروب قد قربت بين الشرق والغرب وقد زادت الحملات الصليبية من قوة المدن الايطالية مما تسبب فى تقويض نفوذ اليهود التجارى وبدء انتهاء سيادتهم التجارية فى غرب أوروبا فى القرن العاشر إلى أن تقوضت تماما فى القرنين الثانى والثالث عشر .

وقد تسبب هذا فى هجرة اليهود من بلد أوروبى لاخر واستمرت هذه الهجرة إلى أن سقطت آخر معاقل التجارة البدائية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ممثلة فى الجيتو فى شرق أوروبا بسبب ظهور الرأسماليات المحلية فيها والسوق القومى الموحد .

وبعد اشتغال اليهود بالتجارة سببا فى « استمرارهم » وفى احتفاظهم بنوع من الاستقلال « العنصرى » و « القومى » فقد ذابت وانصهرت كل شعوب الامبراطورية الرومانية إلا اليهود لأنهم كانوا يقومون بوظيفة محددة واستمروا فى القيام بها بعد سقوط الامبراطورية . وقد استمر هذا الوضع فى المجتمع الاقطاعى الاوروبى لانه مجتمع كان يقوم على التفريق بين الطبقات والجمعات كما كان مجتمعا تصطبغ فيه العلاقات الانتاجية بصبغة دينية ، فكانت العلاقة بين الفلاح والمالك الاقطاعى هى مثل علاقة الإنسان بالخالق ، لقد كان النظام الاقطاعى هرميا صارما فى تنظيمه ، وقد كان عند قاعدة الهرم الفلاحون أو اقنان الأرض الذين كانوا أقرب إلى العبيد منهم إلى الاحرار والذين كانوا يعملون عند مالك الضيعة الذى كان يتبع بدوره البارون الذى كان بدوره يتبع بارون اكبر أو الملك وينطلق التنظيم من فكرة الإيمان المشترك الذى يدعمه سلسلة من العهود الدينية ولذا كان على الفلاح ان يقسم يمين الولاء الدينى كما كان الملوك يحكمون « بحق الملوك الالهى » .

ولم يكن فى هذا البناء المتناسق اى مجال لاى شذوذ أى أن المجتمع الاقطاعى الاوروبى كان يعزل اليهود على مستويين اقتصادى ودينى /

حضارى أى على جميع المستويات الممكنة . ولكل هذا احتفظ اليهود باستقلالهم وقوانينهم ومحاكمهم مما حولهم إلى ما يمكن تسميته بالامة / الطبقة (أو مجتمع شبه قومى فى استقلاله الاقتصادى والحضارى وان كان استقلاله يعود لا لتميزه القومى وانما لتميزه الطبقى) .

وأنا افضل استخدام اصطلاح . « الاقلية الاقتصادية أو حتى « الاقلية التجارية » فهى « أقلية » بمعنى دينى أو عرقى ، و« أقتصادية » بمعنى انها وحدها تضطلع بوظيفة اقتصادية محددة داخل المجتمع . فالوجود كأقلية (دينية أو عرقية) يكتسب اساسا اقتصاديا وبالتالى يتدعم الاحساس بالوحدة والعزلة والتفرد ، كما ان الانتماء الطبقى ذاته يتدعم بسبب الانتماء العرقى أو الدينى المتفرد (وكثيرا ما كانت الطبقات الاقتصادية فى العالم القديم لها مدلول عرقى أو حضارى ايضا ، كما هو الحال فى انجلترا بعد الغزو النورماندى ، حيث اصبحت الاستقراطية الاقطاعية فرنسية وبقية الفلاحين انجليز . ونفس الوضع كان سائدا فى الامبراطورية الرومانية من قبل بل وفى مصر حتى عام ١٩٥٢ حينما كانت تحكم مصر ارستقراطية — أو أقلية — مصرية/تركية) . ويمكن تخيل المجتمع الاقطاعى الاوروبى بشىء من التبسيط على انه مجتمع زراعى مسيحى داخله مجتمع آخر تجارى/يهودى ، وتكون اليهودية بمثابة « بورجوازية بدائية مجمدة » أو « بناء فرعى تجارى رأسمالى بدائى فى البنيه الاساسية الزراعية الاقطاعية .

ومن السمات الهامة فى تاريخ اليهود الاقتصادى فى أوروبا (التى تهمنا فى دراستنا الصهيونية) ان التاريخ الاقتصادى لليهود السفارد مغاير لتاريخ الاشكناز . فاليهود السفارد كانوا دائما ينجذبون إلى البلدان المتقدمة اقتصاديا والمناطق التى لا تمنع النشاطات الاقتصادية لاقتصاد مالى متقدم ، بينما كان يتجه الاشكناز للمناطق المتخلفة من الناحية التجارية ، فمثلا يلاحظ تركز اليهود السفار (على الأقل خلال القرنين السادس والسابع

عشر) فى المدن المستقلة والمراكز التجارية فى أوروبا الغربية ، أما المنطقة التى تركز فيها الأشكناز فكانت داخل ووسط أوروبا وشرقها (وهى المناطق الأقل تقدما) ويعود هذا بلا شك إلى إن المناطق التى استقر فيها السفارد كانت تقوم بالتجارة الخارجية بشكل نشط ، ولذا كانت تتطلب معرفة بالسلعة واسواق المال وهى معرفة كانت متوفره لدى التجار اليهود من السفارد . كما كان يتميز السفارد بانه تربطهم أواصر أسرية وعلاقات العمل والتجاره بيهود شبه جزيرة ايبيريا وامبراطوريات أسبانيا والبرتغال بل وفى الشام . واشتراك اليهود السفارد فى التجارة الاسبانية قد استمر بشكل نشط بعد طردهم من أسبانيا . كما ان السفارد كانوا أكثر غنى ومهارة من الاشكناز ، وكان تعليمهم غاليا (على الأقل بالمعنى العلمانى) من اخوانهم الاشكناز . وبالمقارنة لم يكن الاشكناز . أقل غنى وحسب بل كانوا أقل تأثرا من الناحية الحضارية بعالم الأغيار .

ويظهر هذا الاختلاف الطبقى والعرقى فى التكوين الاجتماعى ليهود فرنسا الذين كانوا ينقسمون بحدة إلى سفاردة واشكناز (وثمة فريق ثالث لا يهمنا ذكره فى هذا المضمار) اما اليهود السفارد فكانوا من نسل المارانوس ، اثرياء يعملون بتجارة الجملة حصلوا على حقوقهم المدنية منذ القرن السادس عشر . وقد أصدر لويس الخامس عشر قرارا بالسماح لليهود القادرين بالاستقرار فى أى مكان داخل المملكة ، ولم ينقصهم سوى الحقوق السياسية خاصة الحق فى ان يصبحوا اعضاء فى المجالس البلدية . اما اليهود الاشكناز ، فالوضع كان مغايرا بالنسبة لهم ، فقد كانوا فقراء ومرابين يتركزون لا فى مدن ساحلية مثل بوردو وانما فى مناطق هامشية (بالنسبة لفرنسا) مثل مقاطعتى الالزاس واللورين ، وقد كانوا محط احتقار الجماهير وسخطهم اى انه كانت هناك هوة واسعة تفصل بين السفارد والاشكناز ، ولذا كان السفارد يحرصون على تأكيد اختلافهم عن الاشكناز ، بسبب الطقوس

الارثوذكسية الخرافية المضحكة التى يمارسها الاشكناز » على حد قول السفارد ، ولذا لم يكن يحدث زواجا مختلطا بين ابناء الفريقين أو الطائفتين أو الطبقتين .

وقد اخبر قادة الجماعة السفاردية ممثليهم المرسلين لباريس فى مارس عام ١٧٨٨ أن يؤكدوا انفصالهم عن الاشكناز (رغم الوحدة الدينية) بل انهم ادعوا انهم من نسل قبائل اليهود هنذ ايام بختنصر ولكنهم لم يذهبوا إلى بابل ، بل رحلوا على التوالى إلى اسبانيا ! وحينما كانت تبحث المسألة اليهودية امام المجلس القومى بعد الثورة الفرنسية ، طالب السفارد الا يعتبروا جزءا من الطائفة اليهودية ككل .

وقد ترك اشتغال اليهود بالتجارة آثاراً عميقة عليهم ، لعل من أهمها أن ارتباطهم وولاءهم اتجه بالدرجة الأولى إلى رأسمالهم أو سلعهم التى يسهل عليهم نقلها (ومن هنا كان حديث اليهود عن التوراة أو التلمود كوطن متنقل) . وقد نتج عن هذا أن الأقليات اليهودية كان من السهل عليها من الناحية الاقتصادية والوجدانية الهجرة من وطن لآخر أينما كان هناك ربح أكثر أو نفع اقتصادى : وبذا تحولت إلى أقليات اقتصادية/ مهاجرة . ومما سهل عملية الهجرة هذه ودعم من فكرة الوطن المتنقل الانتماء الدينى الموحد واللغة الواحدة وبعض الوشائج الثقافية المشتركة . لكل هذا ضعف انتماء اليهود الحضارى إلى حد كبير وجعلهم أكثر تقبلا للأفكار الماشيحانية بخصوص العودة لأرض الميعاد وما شابه من تهويمات . ولعل هذا العنصر فى تكوين أوروبا هو الذى جعلهم أكثر تقبـلا للأفكار الصهيونيه . أما يهود العرب فى إنجلترا وفرنسا فقد تقبلوا الحل الصهيونى لحماية انتماءهم الاقتصاذى والحضارى لبلادهم ضد الهجرة اليهودية من شرق أوروبا وتحويل هذا المد عنهم . ويتضح عمق أثر اشتغال اليهود بالتجارة بشكل جلى فى الجانب النفسى ، فاليهودى تحول من إنسان إلى « عضو فى

طبقة » أو « مصدر للنفع » و « شيء مجرد » . وقد نتج عن هذا التطور أن علاقة اليهود باخوانهم فى المجتمع بدأ يحكمها « قانون » و « لوائح » ولم تعد علاقة إنسانية مباشرة ومتعينة ، أى أن علاقة اليهود بالأغيار أصبحت علاقة قانونية وليست علاقة إنسانية . ولعل تمسك شيلوك المسكين تاجر البندقية أو يهودى البندقية بحقوقه القانونية هو تعبير عن العلاقة التعاقدية اللاشخصية ، وهى علاقة نهاية الأمر لم تفده كثيراً ، وهذا الوضع ليس غريباً ولا شاذاً على المجتمعات الإنسانية ، فالعمال الموسميون (خاصة المهاجرين) يدخلون حتى الآن فى علاقة « موضوعية » فى هذا النوع مع المجتمع . والعلاقة الموضوعية لم تكن من طرف واحد وإنما كانت تبادلية ، فاليهودى بدوره كان لا ينظر للمسيحيين باعتبارهم بشراً وإنما باعتبارهم مصدراً للدخل أو سلع ، مجرد زبائن . وقد تسبب هذا فى ضعف انتمائه للجماعة وفى عدم شعوره بأى عطف أو حنان تجاه جماعة تنظر إليه على أنه أداة . وإذا لم يكن لليهودى علاقة بالجماعة الكبيرة فإن علاقته بالجماعة اليهودية أخذت تتعمق (وهذا مصدر العقلية الجيتورية) . ولعل هذا التراث التجارى المتفرد هو الأساس الاقتصادى للموضوعية التى تسم كثيراً من المفكرين اليهود فى رؤيتهم للأغيار ، وهى موضوعية لا يصاحبها عادة مقدرة على نقد الذات .

وتشكل التجارة البدائية الأساس الاقتصادى للجيتو ولكثير من التطورات اليهودية الدينية والأبنية والفكرية « القومية » مثل وحدة الشعب اليهودى والشعب المختار الشهير الموجود « خارج التاريخ » (أى خارج أى نمط إنتاجى معروف) . كما ترك اشتغال اليهود بالتجارة أثره على التراث اليهودى ذاته ، فعلى سبيل المثال جاء فى سفر الأمثال إن كل من يبحث عن المتعة سيصاب بالفقر ، وهذا جوهر أخلاقيات الادخار التى تؤدى إلى تراكم رأس المال وتجعل منه قيمة فى حد ذاته ، وقد قال أحد الحاخامات فى التلمود حاثا اليهود على الاشتغال بالتجارة « على الإنسان أن يعلم ابنه

التجارة ومن لا يعلم ابنه تجارة فهو كمن يعلمه أن يصبح لصاً . والإنسان الذى يملك تجارة فهو مثل بستان العنب الذى يحيط به سور ، فلا تستطيع الماشية أو المارة أن يأكلوا منه أو حتى ينظروا إليه ، ومن لا يملك تجارة.. فهو كبستان العنب الذى لا سور له ، تدخله الدواب والمارة يأكلون منه وينظرون إليه » . وجاء فى التلمود أيضاً أن الأتقياء يحبون أموالهم أكثر من أجسادهم وأن الحاخام اسحق نصح الإنسان بأن يضع أمواله دائماً فى دورة مالية . وقد قال أحد العلماء التلموديين مشجعاً على التجارة ومهاجمة الزراعة : « لا يوجد عمل أكثر امتهاناً من فلاحة الأرض ، تاجر بمائة زوز تحصل على لحم وخمر ، أما أن استعملت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكثر ما تحصل عليه هو الملح والخضار بل وتجعلك تنام على الأرض كى تحرس المحاصيل وتجعلك فى صراع دائم مع جيرانك » وقد استمر هذا التيار التجارى حتى عصرنا الحديث فى الفكر الصهيونى : فهرتزل والصهاينة يتحدثون بجدية عن شراء حائط المبكى ثم فلسطين ذاتها،والحركة الصهيونية بهذا المعنى حركة قومية / تجارية (وهذا امتداد لمفهوم الأمة ٪ الطبقة أو الأقلية الاقتصادية) إن صح التعبير . وانطلاقاً من نفس التصور التجارى لا يزال الإسرائيليون يتحدثون عن دفع تعويضات للفلسطينيين نظير أن يبحثوا لهم عن وطن آخر ، وتقدم الحركة الصيونية ما يشبه الرشوة لليهود السوفييت ليهاجروا إلى الأرض المقدسة . بل أنه بمعنى من المعانى يمكن تفسير النزعة الانتشارية ٪ الانتحارية عند الإسرائيليين على أنها تعبير عن سيكولوجية « الإنسان الاقتصادى » القادر على التمدد فحسب والخبير فى الحسابات الكمية ولكنه فى الوقت ذاته غير قادر بأية حال على الرؤية التاريخية المركبة التى تأخذ بكل المتغيرات ، كمية كانت أم كيفية ، فى الاعتبار . فالتاجر يتعامل مع البشر باعتبارهم كماً فحسب أو مجرد شىء أو موضوع أو مجموعة من الاحتياجات المادية التى يمكن الاستفادة منها فى زيادة الدخل والربح . وقد لخص ماركس سيكولوجية الرأسمالى حينما قال

أن شعاره هو « فلتنتشر أو لتمت » أى أن الرأسمالى محكوم عليه بأن يستمر فى التوسع إلى أن يموت ، وإسرائيل وريثة البورجوازية اليهودية المجمدة » قد قررت الموت عن طريق الانتشار والتوسع وضم الأراضى ، وابتلاع كميات هائلة من الفلسطينيين لا يمكنها استيعابهم أو هضمهم أو لفظهم .

ثانياً : الربا

ارتبطت صورة اليهودى فى الوجدان الشعبى لشخصية المرابى بسبب ارتباط اليهود بمهنة الربا فى مراحل مختلفة من التاريخ الأوروبى وقد فسرت هذه الظاهرة تفسيرات خرافية شتى ، فقد فسرها المعادون للسامية على أنها نتيجة « النزوع الأبدى » للشخصية اليهودية نحو امتصاص دم الآخرين بينما فسرها المؤرخون الصهاينة على أنها نتيجة اضطهاد الأغيار الذين فرضوا هذه المهنة فرضا على اليهود المساكين. وليس لهذا التفسير أو ذاك أى علاقة بالواقع التاريخى ، فالربا لم يكن أمراً مشينا أو غير أخلاقى لأن المرابى كان يؤدى وظيفة اجتماعية محددة . فحينما كان يريد الأمير الاقطاعى تزويج ابنته أو القيام بحملة لتحرير « الأراضى المقدسة » أو حينما كانت تقع كارثة طبيعية فان المرابى كان يمول المجتمع بالأموال السائلة التى تضمن الاستمرار الاقتصادى للجماعة الانسانية . هذا ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين يلعبون دور المرابى بل كانت هناك أقليات تجارية مالية ، وكان للايطاليين (الذين كانوا يدعون باللمبارديين أو الكاهورسينيين) سمعة سيئة عبر أوروبا كمرابين ، بل انه فى ايطاليا نفسها كانت سمعة التوسكانيين ثم البادوانيين سيئة للغاية لأنهم كانوا يعملون بالربا ، وقد وضع دانتى هذا الفريق الأخير فى الجحيم عقابا رادعا لهم . والصورة كما نرى معقده للغاية ولا علاقة لها بالحب أو الكره ضد جنس معين أو تراث دون آخر ؛ فالمجتمع المسيحى كان ينظر للمرابى على أنه « مصدر للنفع » وحسب شىء مجرد (تماما مثل التاجر) ، فمثلا كان المرابى وثروته يعدان ملكا خالصا للملك واذا فى حالة

موت المرابى سواء كان من اليهود أم من الأغمار ، كان من المفروض أن تؤول ثروته للملك ، ومع هذا كان الملك يترك للورثة مايكفى لمزاولة المهنة والاستمرار فيها . ولم يكن هذا من قبيل الرحمة والشفقة وانما لضمان استمرار العمليات المالية فى المجتمع ولعل أكبر دليل على «موضوعية» أو توضح العلاقة بين المجتمع والمرابى ، انه عندما كان يعتنق المرابى المسيحية ، فهذا العمل لم يكن يقابل بالحماس الدينى والتهليل الحار ، بل كانت تصادر ممتلكاته (أو أكبر جزء منها) بحجة أنه ليس من الانصاف أن تترك للمسيحى الثروات التى جمعها عن طريق الاثم أى أن حرفة المرابى لم يكن لها أى علاقة بانشاء الشخص الدينى ، إذ أن ما يهم المجتمع هو وجود كم معين من المال السائل لتسهيل العمليات الائتمانية والقروض التى يحتاج لها المجتمع الاقطاعى .

ويعود اشتغال اليهود بالأعمال المالية إلى بداية ظهورهم فى التاريخ ففى بابل ثم الاسكندرية اشتغل اليهود بالأعمال المالية ، مثل صك النقود وتغيير العملة وقد لعبوا نفس الدور سواء فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى ، ففى عهد الخليفة الأموى عبد الملك كان اليهود هم الذين يقومون بعمليات تحويل واستبدال العملات (وهذه العمليات تمثل تجارة رابحة) وعند بداية انحلال الخلافة الاسلامية وحينما بدأت تظهر عملات مختلفة فى بلاد عديدة فى كل المراكز التجارية الكبيرة ، استمرت الأقليات التجارية اليهودية فى لعب دورها ، كما نجد أن أول عملات ظهرت فى بولندا فى القرنين الحادى والثانى عشر ، كانت تحمل كلمات بالأحرف العبرية كما أن اليهود قد طردوا من انجلترا عام ١٢٩١ لأنهم كانوا يشوهون حواف العملة ، وهو ما كان يعد جريمة فى ذلك الوقت ، وفى القرن الرابع عشر بدأت بعض بيوتات المال الإيطالية فى الانحلال ولذا دعت الجمهوريات الإيطالية بعض اليهود للاستيطان فيها للقيام بأعمال الربا ولاقراض الجماهير

المحتاجة » . وكانت هذه المدن فى حاجة لليهود إلى درجة أنها ضمنت لهم التعويضات فى حالة نشوب اضطرابات شعبية ضدهم . كما أن ظهور اليهود المتخفين مثل المارانوس مكنهم من الصعود فى السلم الاجتماعى والتغلغل فى عالم المال دون حرج ومن لعب دوراً فى النظام المصرفى ، كما أن اسم ووتشيلد مرتبط بالنظام المصرفى العالمى وبداياته (وقد انحسر الوجود اليهودى داخل عالم المال والمصارف بنشأة النظام المصرفى الحديث) .

وقد اشتغل اليهود بالربا نتيجة لتطور اقتصادى طبيعى لا يمكن تفسيره بشكل أخلاقى أو نفسى ، فحينما بدأت التجارة الحديثة فى الظهور بين المسيحيين اضطر اليهود لاعتزال التجارة وتحويل ممتلكاتهم إلى رأسمال سائل (خشية الاضطهاد أو المطاردة) واشتغلوا فى بادئ الأمر بتجارة التجزئة وتحولوا إلى باعة جائلين ثم قاموا بتحويل العملة ثم اقراضها ، وقد بدأت عملية تحول اليهود من التجارة إلى الربا فى القرن الحادى عشر وبدأت تصل إلى نهايتها فى عصر النهضة فى بعض بلدان غرب أوروبا (والنهاية هى إما اندماج اليهود فى الاقتصاد التجارى الجديد أو هجرتهم) .

وقد انقلت بعض الجماعات اليهودية إلى شرق أووربا لتبدأ الدورة من جديد فى القرن الخامس عشر فاشتغلوا بالربا والتجارة فى بولنداوبعض نواحى روسيا ، ولكن الدورة أخذت مجراها ، فظهرت طبقة تجارية محلية مسيحية وكان على اليهود اما الاندماج فى الاقتصاد الجديد أو الهجرة إلى بلد آخر ، والصهيونية تعبير عن البديل الثانى . وقد ساعد على انتشار ظاهرة الاشتغال بالربا بين اليهود العناصر التالية :

١ — التنظيم الجامد للمجتمع الزراعى الإقطاعى الذى يفصل بين مختلف الحرف والطبقات ، فالتاجر اليهودى لم يكن أمامه بدائل كثيرة مطروحة إذ كان يعمل فى الأمور المالية وحدها وعليه أن يبقى داخل حدوده

كما كان على الزراعيين والحرفيين البقاء داخل حدودهم ، ويقال ان طبيبا المانيا مسيحيا فى العصور الوسطى طرد من مدينته لأنه تعدى على « حقوق » واختصاصات اليهود التجارية والمالية بأن استثمر أمواله فى الربا من خلال صديق يهودى له .

٢ — نجد أن نفس الظروف التى سهلت اشتغال اليهود بالتجارة سهلت اشتغالهم بالربا ، فوجود اليهود على هيئة أقليات تجارية مشتتة جعل من الممكن لحاخام فى لندن أن يكتب رسالة إلى حاخام فى مارسيليا يطلب منه فيها دفع مبلغ من المال إلى أحد الصليبيين الانجليز الذى يوشك على الرحيل إلى الشرق (وفى مقابل ذلك كان على حاخام لندن أن يؤدى نفس الخدمة لحاخام مارسيليا .

٣ — مما ساعد على سرعة تحول اليهود من التجارة إلى الربا ، انصراف اليهود عن التجارة فى ذات الوقت الذى نشأت فيه حاجة فى المجتمع الأوروبى الوسيط لمال سائل لتمويل الحملات الصليبية وحركة بناء الكاتدرائيات ، فتوجه الرأسمال اليهودى نحو الإقراض بسبب مخاطر التجارة . والقرنان الثانى والثالث عشر هما العصر الذهبى لسيادة اليهود فى مهنة الربا وهو أيضاً العصر الذهبى لحركة بناء الكاتدرائيات وشن الحروب الصليبية وبحلول القرن الثالث عشر كانت غالبية اليهود فى ثلاث البلدان التى تسرى عليها لوائح الكنيسة الكاثوليكية (باستثناء جنوب إيطاليا واسبانيا) تعتمد مباشرة أو غير مباشرة على مهنة الربا »

٤ — ولكن إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية والتاريخية التى أشرنا اليها ثمة اعتبارات دينية أخرى ، فالقانون الرومانى ومن بعده القانون المسيحى قد شدد على مسألة أن الاقراض والاقتراض مسائل شخصية بحتة ، فان اقترض شخص مالا من شخص آخر فلا يمكن للاخير أن يبيع أو ينقل مثلا الدين لطرف ثالث . أما اليهودية فلا تحرم هذا مما جعلها قادرة على افراز نوع من « الاقتصاد المجرد » الذى جوهره التبادل

وليس الاستهلاك أو الإنتاج من أجل اشباع حاجات المنتجين وحسب ، بحيث كان من الممكن لأى مراب يهودى أن يبيع صك الدين لشخص ثالث نظير ربح ، كل هذا يعنى — إن أردنا استخدام المصطلح الدينى — ان المسيحية كانت تحرم الربا على المسيحيين ، أما اليهودية فلم تحرمه (وإن كانت حرمت اقراض اليهودى بالربا ، فقد جاء فى سفر التثنية (٢٣/ ٢٠ — ٢١) « لا تقرض أخاك بربا فضة أوزوبا طعام أوروبا شرمما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل اليها لتمتلكها » .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى اشتغال اليهود بالربا ومرة أخرى يجب أن ننبه إلى أن اشتغال اليهود بالربا ليس تعبيرا عن استغلاليتهم وانما هى وظيفة اقتصادية محضة ، وأكبر دليل على هذا أن نشاط المرابى اليهودى قد امتد إلى جلدته (على عكس تصورات المعادين للسامية) . ولكن كان الاقراض فى هذه الحالة يأخذ شكلا متميزا حتى يتم التحايل على التحريمات الدينية الخاصة بعدم اقراض اليهودى بالربا . فمثلا من راشى — العالم اليهودى. قانونا يخول لليهودى الحق فى أن يرسل صديقه ليأخذ قرضا بفائدة من يهودى آخر بدلا منه ، فكان اليهودى يرسل صديقه ليقوم بتسليم القرض إلى اليهودى الذى يريد القرض ، إذ الفائدة محرمة بين الدائن والمدين ، وليست محرمة بين وكلائهما . ولا تنطبق هنا القاعدة العامة التى تقول ان الوكيل يمثل من يوكله ، حيث ان الحصول على فائدة يعتبر جريمة وفى أمور الجريمة لا يمكن محاسبة انسان لفعل ارتكبه آخر .

كما كان المرابى اليهودى أحيانا يصبح شريكا موصيا مع اليهودى الآخر الذى يقترض منه ، أى شريكا يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيبا من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئا من ماله إذا لم تربح ، وهذا هو ما تفعله بعض البنوك الاسرائيلية لتتمكن من اقراض الاسرائيليين اليهود دون الاقلال بالقواعد الدينية :

لم يكن الربا اليهودى إذن استغلال للاغيار وتآمرا ضدهم بل يمكننا القول أن المرابى اليهودى كان الفريسة أكثر منه الضحية فى هذه العملية الاقتصادية ، فاليهود لم يكونوا هم المستفيدون من عمليات الاقراض — فلقد كان الملوك والنبلاء هم فى الواقع أكثر المستفيدين ، وعلى المدى الطويل كانوا هم المرابون الحقيقيون . وقد كانوا يسمحون لليهود بمواصلة مهنتهم حتى يتفاقم الاستياء الشعبى ، وبعد ذلك كانوا يسلبون أموال من كانوا تحت حمايتهم سلفا ثم يقومون بطردهم أوعقابهم بشدة وبهذا كانوا يملأون خزائنهم ، وفى نفس الوقت يكسبون شعبية بين الناس . وقد وصف أحدهم اليهود فى العصور الوسطى بأنهم كانوا يقومون بدور « الاسفنجه التى تعمل ضد ارادتها » فهم يمتصون ثروة الأرض والشعب ، ثم يقوم الحكام بالضغط عليهم حتى يصفوهم مما لديهم من ثروات .

وكان وضع المرابين المحترفين أمرا لا يحسدون عليه فقد كانوا يتقاضون فوائد باهظة تصل إلى ½ ٣٢ ٪ بل وأحيانا إلى ٢٢٠ ٪ لأنهم كثيرا ما كانوا يتعرضون لخسارة أموالهم وفقدان حياتهم ، ذلك أنه لم يكن فى مقدورهم على الدوام أن يلزموا مدينيهم بأن يوفوا بالتزاماتهم عن طريق الالتجاء إلى القانون ، هذا وكان الأمير وليس اليهودى هو الذى يقوم بتحديد معدل الفائدة . ولم يكن يحكم هذه العملية أى قانون تجارى أو أية اعتبارات اقتصادية ناضجة ، وانما كان يحددها مدى خلو خزانة الأمير فطالما كان الاقتصاد مزدهرا ، لم يكن الأمير يطالب بضرائب عالية وبهذا ينخفض سعر الفائدة ويقل السخط الشعبى ضد اليهود . ولكن حينما كان يدخل الاقتصاد الأوربى مرحلة تدهور (كما حدث فى نهاية القرن الثالث عشر ، وهو تدهور زادت من حدته الأوبئة والمجاعات) كان المفروض تأجيل دفع الديون المستحقة ، كما نفعل أحيانا فى العصر الحديث فى حالات الكساد الأقتصادى ، ولكن الأمير فى العصور الوسطى

كان يضاعف معدل الفائدة بسبب زيادة المخاطر المالية ، مما كان يعقد الأمور بالنسبة للجماهير التي كانت تعجز عن سداد ديونها ثم تصب جام غضبها لا على المستغل الحقيقي ، الأمير أو « شيخ المرابين » كما كان يدعى ، « انما على الأداة الواضحة لهم والماثلة أمامهم ، المرابي اليهودي . وأثناء الحروب الصليبية قامت المذابح وصاحبها احراق صكوك الدين . ولم تستطيع أي جماعة يهودية أن تستقر في أي بلد أكثر من قرن واحد على هذا الأساس . فعادة ما كان يكفي جيلان أو ثلاثة للوصول لنقطة الافلاس الكامل ، التي تؤدي إلى الهياج الشعبي وطرد اليهود (من هنا نشأت ظاهرة الطرد المتكرر من بلد لآخر) واحلال مرابين مسيحيين محلهم أي أن المشكلة لم ، تحل خاصة وأن المرابين المسيحيين كانوا أحيانا يتقاضون فائدة مرتفعة . وقد أدى هذا ببعض الحكام لألغاء قرار الطرد وارجاع اليهود كما فعل خليفة لويس العاشر عام ١٣١٥ — الذى أعاد اليهود بناءا على « طلب الشعب » ولكن حينما عاد اليهود ، اندلع السخط الشعبي ضدهم مرة أخرى .

والربا اليهودى ، شأنه شأن التجارة اليهودية ، ربا بدائى هامشى . فالمرابى اليهودى لا يلعب دورا فى العملية الانتاجية أو يظل مصدر فائض القيمة فى النظام الاقطاعى هو نمط الانتاج الاقطاعى ذاته الذى ينتج قيمة استهلاكية وحسب ، دون الاهتمام بالقيمة التبادلية للسلع . ولكن لكى يحصل الأمير الاقطاعى على بعض السلع أو المال السائل كان يضطر إلى أن يقترض من المرابى ويقاسمه فى فائض القيمة ، والأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة للفلاح العادى ، فالامير والاقطاعى كانا يشاركان فى الانتاج أما المرابى فيظل خارج العملية أو على هامشها . ولذا يمكننا القول أن الأقراض الربوى اقراض لا يلعب دورا فى العملية الانتاجية لأنه اقراض من أجل الاستهلاك على عكس الأقراض الرأسمالى الذى يوظف فى العملية الانتاجية

ذاتها ويساهم مباشرة فى انتاج فائض القيمة لأنه يمول المشاريع التجارية والصناعية الكبرى ، بل أن الأقراض هو أحد أسس عملية الانتاج الرأسمالى . وقد كان لهامشية الوجود اليهودى بالنسبة للعملية الانتاجية أثر عميق على اليهود فعليا ووجدانيا ، فمن الناحية الوجدانية يشكل هذا الوجود الهامشى الأساس الاقتصادى لمشاعر معاداة السامية السكرية ، فالجماهير المسحوقة التى لا تفهم طبيعة العملية الانتاجية كانت تفسر بؤسها على أنه نتيجة للاستغلال اليهودى . الواضح أمامها ، وكثيرا ما كان الأمير أو المالك يترك اليهود للجماهير حينما تتراكم ديونه إلى درجة يصعب معها الوفاء بها كلها .

ثالثاً — يهود البلاط وظهور الرأسمالية

تسبب الوضع الهامشى لليهود فى زيادة اعتمادهم على السلطة الحاكمة واذا كان اليهود أقلية لا تخضع للسلطات المحلية دائما وكان سيدها الوحيد هو الملك تؤدى اليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية . وقد اعتبر بعض الأباطرة والملوك أن اليهود « ملكية خاصة » لهم لأنهم من الناحية الفعلية والوجدانية كانوا يقفون خارج المجتمع ، ولذلك نجد فى بعض الدول أن القانون الاقطاعى كان ينص على أن اليهود هم « رجال الملك » . وقد قامت تحالفات كثيرة بين اليهود والملوك أثناء حرب الملوك مع الكنيسة ثم مع الاقطاعيين الاثرياء . ونظرا لوقوف اليهود خارج حدود المجتمع القانونية والاخلاقية فقد أصبحوا يتمتعون بحرية حركة كبيرة ، ولذا تمكن كثير من الممولين اليهود ، خاصة منذ القرنين السابع والثامن عشر ، أن يجمعوا ثروات كبيرة كنتيجة لصلاتهم العالمية وخبرتهم فى أمور المالى السائل ، وكانوا يستثمرون هذه الثروات باقراضها للحكومات . هذه الطبقة من الممولين اليهود ، نظرا لأرتباطها بالملوك أصبح يطلق عليها اصطلاح « اليهود البلاط »

كان يهود البلاط يندمجون حضاريا في المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولا يتزوجون من أبناء اليهود العاديين (يهود الجيتو) وإنما من أبناء « يهود بلاط » مثلهم ، كما أن مصالحهم الاقتصادية كانت مرتبطة تماما بمصالح المالك أو الحاكم ، وكثيرا ما كانت تتعارض مع مصالح الأقلية اليهودية بل لقد كان بعضهم يقف ضد هجرة اليهود إلى بلادهم ويؤلبون الملك ضد المهاجرين اليهود الجدد ولكنهم كانوا أحيانا يتدخلون عند الملك لصالح الأقلية اليهودية ولكن التحالف بين الملك ويهود البلاط كان مرتبطا بمدى حاجة الملك اليهم ، وكثيرا ما كان يتخلى عنهم عندما تنتهي هذه الحاجة . كأن تنشأ طبقة بورجوازية قوية تقوم بالنشاط المالي اللازم . وكان من السهل على الملوك التخلص من يهود البلاط والاقليات اليهودية عامة لأن دورها المالي الذي كانت تلعبه كان دائما هامشيا غير مرتبط بالعمليه الانتاجية . ولهذا السبب لم يكن اليهود طبقة مستقلة لها نفوذ وكيان مستقلان ولم يتراكم معهم رأسمال كاف ولم يصبح عندهم القدرة اللازمة كي يتحولوا إلى طبقة حاكمة ، وأنما ظلوا طبقة تابعة مرتبطة باحدى الطبقات أو القطاعات الحاكمة (والطريف أنه يمكن رؤية الكيان الاسرائيلي على أنه كيان تابع بغض النظر عن قوته أو ضعفه ، لقوة امبريالية غربية — أي أن اسرائيل « دولة بلاط امبريالي ..

ومن أشهر يهود البلاط صامويل أوبنهايمر الذي جاء إلى فيينا بعد أن طردمنها اليهود « لأن وجودهم كان مضرا بالمسيحيين » . وقد نظم أوبنهايمر مالية النمسا أثناء حربها الطويلة المكلفة مع الاتراك وحاز اعجاب الامبراطور والأمراء ، ولكن حينما نشبت مظاهرة شعبية ضده ألقى به في السجن . ولم يكن مصير قريبه سوس أوبنهايمر (١٦٩٨ — ١٧٣٨) الذي كان يعمل في بلاط دوق فرتمبرج مختلفا ، فقد أدى خدمات كثيرة للدوق فنظم ماليته ، واحتكر بعض النشاطات التجارية والصناعية وأشرف

على دار صك النقود وأقرض وأيد الدوق فى محاولته للضغط على الكنيسة لتودع أموالها فى بنك مركزى الأمر الذى أثار حنق الوعاظ ضده وحينما مات الدوق اتهم أوبنهايمر بالخيانة وأعدم . وكان سولومون روتشيلد (من عائلة روتشيلد الشهيرة التى مولت النشاط الصهيونى فى بدايته وتحالفت مع الإمبريالية لإنشاء الدولة الصهيونية) هو آخر «يهودى بلاط» ، وقد يكون أمراً ذا دلالة رمزية أنه ساعد صديقه ميترنيخ ، زعيم الرجعيـة الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، على الاختفاء بعد سقوطه تحت ضغط الحركات الشعبية والثورية .

وقد أدى يهود البلاط خدمات جليلة للملوك خاصة فى نهاية القرن السادس عشر فى عصر الملكيات المطلقة فى وسط أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر (فى وسط أوروبا إلى حد ما شماله أيضاً ، حينما كان الملوك يحاولون بسط نفوذهم على كل ممتلكاتهم عن طريق انشاء ادارة مركزية ، فكان يهود البلاط ينظمون شئون الملك المالية ويشرفون على دار صك النقود ويقومون بجمع الضرائب له ويمولونه بما يحتاج اليه من مال حتى ينفق بسخاء على مظاهر الترف اللازمة للملكيات المطلقة ويعقدون له الصفقات التجارية ومما ساعد يهود البلاط على لعب هذا الدور تلك الشبكة العائلية التى تصلهم ببعض ، وصلاتهم العالمية خاصة بعد ظهور اليهود السفارد فى هولندا الذين كانت تربطهم صلات قوية بيهود الشام والامبراطورية العثمانية . ولقد استطاعوا بفضل اشتغالهم بأعمال المقاولة أن يساهموا جزئيا فى عملية التصنيع ويمكن اعتبار ظهور يهود البلاط بمثابة ارهاصات لظهور الدولة الرأسمالية القوية الحديثة ، فقد ساعدوا الملك على التخلص من قبضة الأمراء الحديدية كما أنهم كانوا يمثلون مجموعة طبقية تمثل الانتقال إلى الطرق الحديثة فى علوم الاقتصاد والحكم . ولقد ساعدت خبرتهم السابقة فى أعمال البنوك الواسعة والتعاقدات مع المؤسسات العسكرية .. الخ فى وضع حجر الأساس للنظام المصرفى الحديث . ولقد زودهم اشتراكهم فى خدمات

سابقة للدولة ، بالمعرفة والصلات السياسية اللازمة للحصول على تراخيص وامتيازات وقوة العمل اللازمة للمشروعات الصناعية النامية . وهكذا أصبح يهودي البلاط السابق مقاول صناعي الآن . مستمراً في الإبداع الاجتماعي ، خالقاً أنماطاً جديدة في التنظيم الاقتصادي ، كما صار يساعد في تحطيم الإطارات العتيقة والأنظمة التقليدية . ولم يكن من قبيل الصدفة أن هذا النموذج من اليهود قد انتشر بعد عصر النهضة مباشرة ، عصر الانتقال من العصور الوسطى الإقطاعية إلى العصور الحديثة الرأسمالية القومية .

ويثير الدور الذي لعبه يهود البلاط قضية أكثر شمولا وهي علاقة اليهود بنشأة النظام الرأسمالي في الغرب ، وقد كان سومبارت عالم الاجتماع الألماني هو أول من نبه للعلاقة بين اليهود وظهور الرأسمالية . ويحتفظ كثير من المؤرخين على أطروحة سومبارت نظراً لتطرفها ، إلا أن الكثير منهم الآن يرى أن اليهود هم الخميرة التي ساعدت في عملية التخمر الرأسمالي ، فالباعة اليهود وكذا اليهود الذين كانوا يقومون بأعمال الفنادق الصغيرة وتقطير الكحول وإنتاج الماشية في المناطق الريفية ، ساعدوا على إدخال عناصر التبادل واقتصاد المال . وكان نشاط صغار التجار اليهود في المناطق الريفية يشجع إنتاج فائض زراعي ، لزيادة استهلاك البضائع غير الزراعية ، كما كان يساهم في إبعاد جزء من قوة العمل الزراعي السابقة عن الأرض ، وتوجيهها إلى صناعات الأكواخ المنزلية ، وخدمات النقل . وبذا ساعد هذا النشاط على خلق قوة عمل غير زراعي في المناطق الريفية تعتمد على الأجور أكثر من اعتمادها على العائد من الأرض .

وقد ساهم الربا كذلك في تسهيل عملية انتقال أوروبا من الاقتصاد القائم على نظام المقايضة إلى الاقتصاد المالي خلال تلك القرون ، أي أن اليهود ساهموا ، بتجسيدهم ضرباً من الاقتصاد المجرد في التمهيد لظهور النظام الرسمالي . ولعل هذا التجريد قد وصل إلى قمته في التنظيم القانوني الكامل

لعلاقة اليهود بالمجتمع وإحلال العلاقات القانونية محل العلاقات الشخصية : وفكرة القانون اللاشخصي وتموضع العلاقات الإنسانية (علاقات إنسانية بين أشياء وعلاقات إنتاجية بين بشر) هو الجوهر النفعي للاقتصاد والمجتمع الرأسمالي .

وكل هذا لا يعني أن اليهود «مسؤولون» عن ظهور الرأسمالية في أوروبا ، إذ يجب أن نتذكر أن إسهامهم يتلخص في كونهم أقلية اقتصادية مهاجرة تحمل أفكاراً تجارية وتجسد قيماً دينامية تتنافى مع ستاتيكية المجتمع الإقطاعي المسيحي . إلا أن الأقليات اليهودية مع هذا ظلت هي الجزء من الكل الأوروبي الأكبر الذي كان يتحرك بخطى حثيثة نحو التنظيم الرأسمالي للمجتمع كنتيجة لتغيرات بنيوية عميقة لم يكن اليهود مسئولين عنها : بل راحوا ضحيتها في نهاية الأمر سواء حينما طردوا من إنجلترا في القرن الثالث عشر أو أبيدوا في ألمانيا النازية في القرن العشرين .

الفصل الثاني

الجيتو

حاولنا فى الفصل السابق ان نقدم اطاراً عاما لتاريخ الاقلايات اليهودية الاقتصادى فى الغرب وهكذا يمكننا القول ان اليهود كانوا يمثلون أقلية أقتصادية تعمل بالتجارة ، وأنهم كأقلية أقتصادية كانوا يعيشون بمعزل عن بقية الشعب فى أماكن ومناطق خاصة بهم . ولم يكن استيطان اليهود فى احياء خاصة بهم امرا شاذا مقصورا عليهم ، فالفصل بين الطبقات والفئات كان أمراً طبيعيا وسمة جوهرية من سمات التنظيم الاجتماعى المعمول به فى مجتمعات العصور الوسطى الزراعية الاقطاعيه فقد كان التفريق بين الطبقات يسهل عملية الحكم ذاتها من ضمان الأمن لجمع الضرائب لمراقبة الأجانب ، وهكذ كانت الجماعات الاقتصادية فى المجتمع الزراعى ذات طبيعة مغلقة لأن المجتمع الاقطاعى لايتسم بأية سيولة أو دينامية أجتماعية . ولكن مما عزز هذا الإتجاة بين الأقليات اليهودية بشكل خاص بناؤها الدينى ٪ القومى ، فالقوانين اليهودية المختلفة (خاص قوانين الطعام ، وتحريم الزواج المختلط والاحتفال بالختان والزواج وصلاة الجماعة وعادات الدفن والمدافن الخاصة كل هذا فرض على اليهود نوعا من الانعزال شبه التام والإنفصال شبه الكامل وقد أخذ الوجود اليهودى داخل المجتمعات القديمة والوسيطة اشكالا متعددة مثل حارة اليهود فى البلاد العربية ، ولكن حيث أننا بصدد دراسة الصهيونية فان ما يهمنا هو أشكال الوجود الجيتوى فى المجتمعات الشرق أوروبية مثل الشتتل والقهال ومناطق الاستيطان والجيتو ، وكلمة الشتتل كلمة تصغير

يديشيه مشتقة من كلمة «شتوث» أى مدينة ، والكلمة اليديشيه عبرية فى الاصل وكانت تعنى شتلة ويقصد بها زرع (شتل) كيان ما داخل التربة ، والشتتل عبارة عن تجمع سكانى يهودى يبلغ عدد سكانة ما بين ألف وعشرين ألفا استوطن فيه اليهود على مقربة من النبلاء وفى وسط الفلاحين البولنديين ، وتدور الحياة فى الشتتل حول المعبد اليهودى والمنزل اليهودى ثم السوق الذى يلتقى فيه اليهود بالاغيار . وقد ذكر أحد المؤرخين أن من يقول كلمة مدينة يهودية صغيرة فكأنة يقول تجار صغار خمارين وصيارفه ووسطاء من جميع الانواع ، فقد كانت هذه هى الحرف التى يعمل فيها اليهود وقد ظهرت الشتتلات بعد أن أزداد نفوذ البورجوازاية المسيحية فى المدن الكبيرة مما أضطر اليهود إلى تركها والشتتل عادة ما يكون مستقلا أو منفصلا حضاريه واجتماعيا وعرقيا عن البيئة المحيطة به . ومن الأشكال الادارية الجيتوية الاخرى القهال وهى كلمة عبرية تعنى «جماعة» وهى تستخدم للاشارة إلى نمط الحياة اليهودية المعروف بهذا الاسم فى بولندا (وفى روسيا فيما بعد) ، فقد كان من حق يهود بولندا تنظيم حياتهم بطريقتهم الخاصة ، فأسسوا نظاما اداريا قضائيا مستقلا يرأسه مجلس أعلى يسمى مجلس البلاد الاربعة (أقسام بولندا الاربعة) وكان من حق هذا المجلس فرض الضرائب وتعيين القضاء واقامة محاكم مستقلة ، وكانت مجالس الاحياء أو القهال (أصغر الوحدات الاذارية) تقوم بتنظيم جميع جوانب الحياة اليهودية . من الداخل كالاشراف على الزواج والطلاق والختان ، كما كانت تنظم حياة اليهود كجامعة أقتصادية / دينيه فى علاقتهم بالاغيار وكانت العزلة اليهودية وهى عزلة لم يختروها بل هى نتاج اليهود علاقة اليهود بالمجتمع) تأخذ شكل مناطق كاملة يمنع اليهود من الأقامة أو العمل خارجها مثل منطقة الاستيطان اليهودى فى روسيا .

ولكن أهم الاشكال الجيتوية على الاطلاق هو الجيتو ذاتة : والجيتو هو حى مقصورا على احدى الاقليات الدينية أو القومية ، ولكن كلمة

جيتو تستخدم بشكل خاص للاشارة لاحياء اليهود فى اوروبا ، وقد اقيم اول حى يهودى يطلق عليه كلمة (جيتو) فى البندقية عام ١٥١٦ ، واقام البابا بول الرابع جيتو آخر فى روما عام ١٥٥٥ . وأصل الكلمة غير معروف على وجه الدقه ، فيقال انها حى اليهود فى البندقيه نسبة إلى الجيتو أو مصنع المدافع الذى اقيم بجواره ، ويقال أيضا ان الكلمة مشتقة من الكلمة الالمانية «جيهكتو» التى تعنى مكانا محاطا بالأسوار أو الكلمة العبرية (جت) بمعنى الانفصال أو الطلاق الواردة فى التلمود ، ولعل أكثر الاقتراحات قربا من الواقع هو ذلك الذى يعود بالكلمة إلى كلمة بورجيتوا الايطالية التى تعنى قسما صغيرا من المدينة . وقد اكتسبت كلمة جيتو فى العصور الحديثة معنى قدحيا سلبيا ، غير أنه من المعروف ان انشاء الاحياء التى تركز فيها اليهود قد تم طواعية أى برغبتهم هم كأقلية دنية . ففى عام ١٠٨٤ تقول التواريخ ان اسقف مدينة سبير منح اليهود الحق فى أن يعيشوا داخــل حى خاص بهم محاط بأسور عالية . وحينما غزا المسيحيون الأندلس طالب اليهود بنفس الحق . ومن أشهر الأمثلة على تلقائية الجيتو حالة بعض يهود براغ الذين كانوا يعيشون خارج نطاق المنطقة المخصصة لليهود ثم قرروا فى القرن الخامس عشر ان ينضموا لاخواتهم الذين يعيشون داخل تلك المنطقة . وقد كان اليهود يعترفون بالجوانب الايجابية للجيتو حتى انه كانت تقام الصلوات كل عام فى جيتو فيرونا احتفالا بالذكرى السنوية لانشائه .

وقد يكون من المفيد أن تنظر للبناء الطبقى للجيتو من الداخل أولا ثم فى علاقته بالعالم الخارجى ثانيا . وتنقسم الأعمال التى كان يقوم بها اليهود إلى قسمين الأعمال التى تفيد الجماعة اليهودية فقط ، تلك التى كانت تلبى حاجات خاصة بالجماعة اليهودية ولكنها فى الوقت ذاته يمكن أن يستفيد منها الاغيار وكان الحاخامات والمدرسون ومن يقومون بأعمال الذبح الطقوسى

وكتبة لفائف الشريعة وموظفي الحمام الطقوس وحارسوا المعابد والمقابر يعتبرون داخل المجموعة الأولى ، وكانت الشرائع والقوانين الدينية والتقاليد هي التي تحدد إلى درجة كبيرة مدى فاعلية هذه الخدمات ، ولذلك فهي لم تتميز بالمرونة . وضمن المجموعة الثانية كان يوجد الجزارون وصانعوا الشموع وتجار الكتب وناسجو شال الصلاة (الطاليت) وكان من الممكن ان تصبح الحاجة لاعمالهم حاجة مشتركة ، حيث انهم كانوا قادرين على تقديم خدمات لغير اليهود ايضا . وقد بلغت العمالة المخصصة لخدمات المجتمع الداخلية حوالى ١٠ ٪ من مجموعة العمالة اليهودية فى الجيتو .

هذا من ناحية الوظائف والعمل ؛ اما من ناحية الثراء والفقر فيمكن ان نقسم اليهود داخل الجيتو إلى المجموعات التالية :

المجموعة الأولى وتضم أثرياء التجار والمقاولين الذين يشتغلون بالتجارة العالمية وداخل الأقاليم ويملكون المؤسسات الصناعية والبنوك ويقومون بعمليات الاقراض ، ويعملون كوكلاء للبلاط وملتزمين بجمع الضرائب ، الخ وبمقياس المكانة الاجتماعية كان يوجد ضمن هذه المجموعة العلماء الحاخاميون وناشرى الكتب رغم أن هذين الآخرين كانا فقراء بمقاييس الثراء . المجموعة الثانية والتى تمثل أغلبية السكان اليهود : فكانت تضم كل من يملك رأسمال فى شكل أدوات أو مخزون من البضائع والذى كانت تعمل فيه أسرهم والذين كانوا يستخدمون عددا صغيرا من العمال . وكان هؤلاء مثل من ينتمون للمجموعة الأولى — على اتصال مباشر بالسوق ، كما كانوا معرضين لكل اضطرابات الأسواق التى لم تكن تتسم بالنظام فى ذلك الوقت . وبالرغم من أن القانون لم يكن ليقف أمام من يريد الانتقال من هذه المجموعة للمجموعة الأولى ، فقد كان الانقسام الثنائى ظاهرا بين المجموعتين فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى . وتدل التظلمات والشكاوى التى كان يرفعها من ينتمون للمجموعة الأولى على وجود مثل هذا الانقسام

بينهما . وكانت المجموعة الثالثة تضم أصحاب الأمور المشتغلين بالحرف والتجارة والنقل والخدمات بما فى ذلك الخدمات المنزلية ، وعددا كبيرا من العاطلين ، وكان على المجتمع أن يوفر لهم سبل الرزق .

كانت توجد إذن داخل الجيتو طبقات مختلفة فكان هناك الغني والفقير والمستغل إلا أن الطبيعة المنغلقة لهذا البناء الاقتصادى فرضت تداخل كل الطبقات كما زاد نظام الضرائب فى المجتمعات الاوربية من هذا التداخل إذ كانت تفرض الضريبة على الجماعة ككل (سواء كانت جماعة دينية أقتصادية مثل اليهود أو جماعة اقتصادية ذات طابع دينى مثل نقابات الحرفين) . وحيث أن فقراء الجيتو كانوا غير قادرين على دفع الضرائب كان الأثرياء يقومون بدفعها كلها نيابة عن الجماعة ولذا تحولوا إلى اوستقراطية ذات ثقل كبير مما زاد من هيمنتها على اليهود . وقد انعكس هذا الوضع على التنظيم الاجتماعى للجيتو فكانت الجالية اليهودية تقوم برعاية مصالح كافة أعضائها بصرف النظر عن انتمائهم الطبقى (ولعل هذا يفسر سر الوحدة الوجدانية بين البرجوازية والبروليتاريا اليهودية كما يعطينا مفتاحا لفهم الصهيونية العمالية التى تنطلق من تصور وحدة العمال والرأسماليين اليهود . ولقد دفعت معظم المجتمعات اليهودية ثمنا غاليا للعناية الأبوية التى كانوا يتلقونها ، لأن أصحاب البنوك والمموّلون اليهود كانوا يشعرون الجيتو بنفوذهم عن طريق التحكم فى حياة اليهود الجماعية . ولقد قدر لهذا الإطار من اعتماد اليهود المتذلل على قلة من الوسطاء الاثرياء ، أن يستمر فى حياة اليهود حتى بعد التحرر السياسى هذا من ناحية البناء الطبقى الداخلى للجيتو أما من ناحية علاقة اليهود بالمجتمع الخارجى ، فلابد وأن نلاحظ بداءة أن اليهود لم يضموا فى صفوفهم بعض الطبقات الاجتماعية مثل المالك والنبلاء والأشراف والفلاحون ، ولهذا لم تكن هناك مشكلة منافسة اقتصادية إذا كانت المنافسة أساسا بين اليهود من جهة والتجارة والحرفيين من جهة أخرى . فاذا نظرنا لعلاقة اليهود بالمالك فأننا نكتشف

أن اليهود كانوا أما مصدر دخل أو أداة للتطوير الاقتصادى فى مجال التجارة الخارجية والنفوذ والائتمان والصناعة (فيما بعد) . وهذه العلاقة لا تختلف كثيرا عن علاقة النبلاء باليهود إذا كان اليهود يقومون لهم بدور جامعى الضرائب أما بخصوص موقف الاشراف (أو صغار الملاك الزراعين) فقد كان أقل وضوحا ، فقد ساعد اليهود الاشراف على بيع محاصيلهم وعلى توريد البضائع التى يحتاجون لها ، كما كانوا يقرضونهم النقود التى يحتاجون لها ، وكان الأشراف يحتاجون لليهود كى يكونوا بمثابة الحاجز بينهم وبين الفلاحين ؛ ولذا كان اليهود دائما هم كبش الفداء لغضب الفلاحين . ووجود اليهود كعنصر منافس للتجار ولسكان المدينة كان مفيدا للاشراف ، إذا أنهم عن طريق اليهود تمكنوا من مقاومة مطالب التجار بالاستقلال الاقتصادى والسياسى ولذلك كان الأشراف يدافعون عن اليهود (وأن كانوا يمقتونهم فى ذات الوقت لأنهم يقترضون منهم) . وعلاقة الفلاحين باليهود لم تكن أيضا علاقة تنافس ، ولكن مع هذا كان اليهودى هو ممثل الملك والنبيل الإقطاعى ، كما أنه كان يقوم بدور الملتزم وجامع الضرائب . ولذلك فى حالات الثورات الفلاحية الشعبية فان التاجر اليهودى كان هو الضحية الأولى والسهلة . أما بخصوص علاقة اليهود بالتجار والحرفيين فقد كانت علاقة منافسه قوية ، ولذلك نجد أن المحرضين على الثورات ضد اليهود كانوا أتون من صفوف هذه الجماعات ، كما أن طرد اليهود من الوطن ككل كان يتم تحت ضغط هذه الطبقات والفئات الاجتماعية .

كان البناء الطبقى لليهود إذن متميزا هامشيا فاليهودى كان أما أداة الحاكم والملك والنبيل أو غريم للتجار والحرفى ، وقد زاد البناء الحضارى والدينى للجيتو من هذه العزلة (ومرة أخرى ننبه إلى أهمية مفهوم الأقلية الاقتصادية التى تستند عزلتها إلى أساس اقتصادى تحت وإلى شكل حضارى أو دينى فوق) . كان اليهود من الناحية الانسانية يعيشون فى الجيتو فى

شبه عزلة كاملة فاليهودى لا يأكل مع الأغيار ولا يصلى معهم ولا يتزوج منهم بل ولا يدفن معهم أى أنها عزلة كاملة فى الميلاد والحياة والموت . فإذا نظرنا مثلا إلى فعل يومى متكرر مثل تناول وجبة مع جار أو صديق فأننا نكتشف أن اليهودى كان لا يمكنه أن يفعل هذا . فاليهودى كان لابد وأن يأكل طعام «كوشر» أى طعام مباح أكله حسب قوانين الشريعة اليهودية ، وهى قوانين مركبة للغاية فمثلا يحرم الجمع بين اللحم واللبن كما أن الحيوانات كان لابد أن يذبحها ذابح شرعى . وقد تسبب هذا الوضع لا فى عزلة اليهود عن الأغيار وحسب وأنما زاد أيضا من هيمنة الحاخامات على اليهود ، لأن اليهودى يضطر للحاخام من آونة لأخرى طالبا للفتوى كما أن ضرورة ذبح الطيور والحيوانات على يد الذابح الشرعى جعل من المستحيل على اليهودى أن يعيش خارج الجماعة اليهودية كما أن اليهودى لابد وأن يدفن مع غيره من اليهود ، ولذلك فان من أهم المؤسسات داخل الجيتو المدفن اليهودى ، إذ أن الدفن وطريقة الدفن واقامة المدافن لها طقوسها الخاصة فى اليهودية .

وفى داخل هذا الإطار الحضارى الانعزالى تزداد أهمية بعض الشخصيات التافهة التى لا تلعب أى دور انتاجى وأنما لها دور طقوسى محض ، فالموهيل أو الشخص الذى يقوم بعملية التختين (والتختين له دلالة خاصة فى اليهودية ، فمن لم يختن لا يعد عضوا فى الشعب المقدس أصبح شخصية محورية « فالشوحيط » الذابح الشرعى أصبح هو الآخر شخصية بارزة « فكل الزيجات اليهودية حتى أواخر القرن التاسع عشر كانت تتم من خلال الخاطبة . ومن أهم الشخصيات الأخرى داخل الجيتو الشماس أو حارس المعبد اليهودى الذى كان يقوم بوظائف متعددة إذ كان يشرف على المعبد وينفذ أحكام « بيت دين » أو المحكمة اليهودية ، وكانت واجباته هذه تجعله مسئولا عن جمع معلومات تفصيلية عن اليهود مما جعله سيدا للجماعة التى تخاف ارهابه وسيفه المسلط . ولكن أهم شخصية على الأطلاق

كانت الحاخام وأهم مكان هو المعبد : أما المعبد اليهودى فهو لم يكن مكانا للصلاة وحسب وانما مكانا للتعليم (كما ذكرنا آنفا) ومكان للاجتماع أيضا وكانت المعابد اليهودية الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر مكانا يتبادل فيه اليهود المعلومات التجارية بل كانوا أحيانا يتشاجرون بالايدى ويتناقشون بصوت عال ، وكان اليهود يجلسون فى المعبد كل حسب انتمائه الاجتماعى أو الطبقى فيجلس الحاخامات والفقهاء وأصحاب المكانة العالية فى المقدمة ويجلس وراءهم أثرياء التجار ثم اليهود العاديون : وكانت المكانة تقاس بمقدار القرب أو البعد عن الحائط الشرقى فى المعبد : فكان أعلى الناس مكانه يجلسون بالقرب منه أما الحائط الغربى فكان يجلس إلى جواره الشحاذون والمعوزون .

أما الحاخام فعلى الرغم من أنه لا يلعب دور الكاهن التقليدى (فهو لا يقوم بدور الوساطة بين الخالق والمخلوق) إلا أنه كان يشغل مركزاً قيادياً فى الجماعة لأن الديانة اليهودية بتشابك طقوسها وتداخلها فى صميم الحياة اليومية اليهودية (كما هو الحال فى قوانين الطعام) كانت تثير كثيراً من المشاكل لليهودى فيضطر اليهودى للجوء إلى الحاخام بشكل متكرر ، ومما ساعد على تداخل الحياة الدينية بالحياة اليومية أن كثيراً من الحاخامات كانوا يعملون فى مهن مختلفة مثل الاشتغال بالأعمال المصرفية والتجارية . فسامسون فرتايمر كان من أهم المصرفيين فى النمسا والمجر ثم عين الحاخام الأكبر للمجر بعد ذلك . كما أن مفهوم الشريعة الشفوية التى تنفرد به الديانة اليهودية دون الديانات السماوية الأخرى دعم مركز الحاخامات وخلع عليهم ضرباً من القداسة لأنهم هم مبشروا هذه الشريعة وحملة رايتها ، وكان الحاخامات يتلقون تعليما دينياً صرفاً تلمودياً ثم قبالياً فى معظمه ، وكانوا يشكلون طبقة مثقفى الجيتو ، ولم تكن المؤسسات التربوية بأحسن حالا من المؤسسات الإدارية أو القضائية أو الدينية ، فاليهودى كان لا يدرس

إلا فى مدارس أشبه بالكتاتيب ملحقة بالمعبد اليهودى ويطلق عليها اسم حيدر ، ينتقل منها إلى البيت هامدراش ثم اليشيفا ، أو المدرسة التلمودية ، وفى هذه المدارس كان لا يدرس إلا التوراة والتلمود والمدراش والزوهار ولا يقترب البته من تاريخ الأغيار أو معارضهم ، فقد كان كل ما يعنيه هو التراث اليهودى وتاريخ اليهود المقدس . وكان مجرد التفكير فى دراسة علوم الدنيا مثل الهندسة جهداً لاطائل من ورائه وكفراً تعاقب عليه الشريعة . بل أن الحديث اليومى بين اليهود فى المجتمع لم يكن يتم بلغة البلاد وإنما برطانة يهودية خاصة تسمى باليديش . وحينما كان يتعلم يهودى الجيتو لغة جديدة فإنه كان يتعلم « لشون هاتودش » أى اللسان المقدس أو اللغة العبرية لأن مجرد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يعد كفراً ما بعده كفر ، يستحق اليهودى عليه حرق عينيه . وكانت الانعزالية تمتد إلى الأزياء التى يرتديها اليهودى بل وإلى الطريقة التى يحلق بها اليهودى لحيته وسوالفه (إذ أنه كان ينبغى عليه اتباع التعاليم التى قد وردت فى سفر اللاويين بضرورة عدم قص اللحية والسوالف) .

وقد كرست هذه الانعزالية عن طريق الشارة الصفراء التى كان على اليهودى ارتدائها لتميزه كعضو أقلية اقتصادية دينية (وكانت العاهرات يلبسن نفس الشارة فى بعض الأحيان ، بل أن العاهرات كثيراً ما كن يمارسن مهنتهن داخل الجيتو باعتبارهن أقلية اقتصادية متميزة وإعتبار الدعارة نوع من أنواع التجارة) .

وقد ظل الجيتو على الرغم من انعزاليته — أو ربما بسببها — يقوم بدوره الإيجابى كبنيان اقتصادى ٪ اجتماعى يوفر لليهود الاستقلال الذى يبغونه كطبقة لها مصالحها ومشاكلها الإقتصادية والدينية الخاصة . ولكن بتحول المجتمع الإقطاعى تدريجياً وبظهور أنماط من الرأسمالية التجارية المحلية بدأ اليهود يفقدون دورهم الإقتصادى وانهار مركزهم عبر القرون من تجار

دوليين إلى مرابين ثم أخيراً إلى صغار مرابين يقومون بإقراض كميات صغيرة من النقود للمواطنين العاديين الذين كانوا يرهنون ممتلكاتهم الخاصة ويدفعون فوائد باهظة . وحينما كان يعجز المدين عن الدفع تصبح السلعة المرهونة ملكاً للمرابي الذي كان يسلمها للشخصية الأساسية الثانية في الجيتو: التاجر المتجول وبائع الملابس القديمة . وقد كان الاتجار في الملابس القديمة يعتبر جزءاً هاماً في عملية الإقراض ضد الرهونات في غرب ووسط أوروبا وإيطاليا ، حيث كانت تباع الأشياء المرهونة التي لم يستطع أصحابها سداد قيمة الدين (مثل المجوهرات والملابس الخ) . وحيث أن معظم تلك البضائع كانت في حاجة إلى تجديد وإصلاح ؛ فقد صارت عمليــات الصباغة والحياكة والرتق من الأعمال الثانوية التي يقومون بها . وبعد ذلك صارت هذه تجارة منفصلة كانت تقوم بإيفاء حاجات قطاعات كبيرة من السكان حتى وقت انتشار الثورات الصناعية والتكنولوجية . وقد ارتبط اليهود بهذه التجارة والصناعة حتى أن فقراء اليهود الاشكناز كثيراً ما كانوا ينعتون « بمصلحي الثياب القديمة » .

وقد تسبب انهيار الأساس الاقتصادي للجيتو في انهيار معنوي وأخلاقي كامل ، كما زاد من حدة اضطهاد العالم الخارجي للقاطنين فيه ، وأصبح الجيتو هو المكان الذي « يعزل » ويحاصر فيه اليهود بعد أن كان المكان الخاص المقصور عليهم . وقد تحول الجيتو إلى مكان قذر للغاية تنتشر فيه الأمراض وتتراكم فيه القاذورات وتحيط به أسوار وحيطان عالية ، وله بوابة واحدة أو بوابتان ويمنع اليهود من مغادرته بعد منتصف الليل وفي أيام الآحاد وفي أعياد المسيحيين ، وقد تضاعف عدد اليهود في أواخر القرن الثامن عشر مما أدى إلى ازدحام الجيتوات ، وحتى تمنع السلطات الألمانية ازدياد اليهود ازدياداً كبيراً كانت تتدخل لتحديد نسبة الزواج بين اليهود بحيث كانت لا تتعدى بأية حال نسبة الوفيات وأحياناً كان لا يسمح

إلا لأكبر الأطفال وحسب بالزواج ، وفى فرانكفورت كان يمنع الزواج قبل سن الخامسة والعشرين ، وكان يصرح بإثنى عشر زيجه فى العام لكل ٥٠٠ أسرة ، وقد بلغ ازدحام الجيتو فى فرانكفورت أنه كانت تعيش ٤ آلاف أسرة فى ١٩٠ منزل وشارع عرضه ١٢ قدم حسب ، بل كانت تعيش علة أسر فى حجرة واحدة (فى جيتو روما) وكانت المنازل تستخدم أحياناً كورش فى الصباح ومكان للنوم فى المساء .

ومما زاد الطين بلة أن الأرض المصرح لليهود ببناء منازلهم فيها كانت محددة مما اضطرهم فى غالب الأمر إلى الاتساع الرأسى ، فكانت منازل الجيتو متلاصقة كما أنها كانت تتميز بارتفاعها الذى يفوق ارتفاع منازل المدينة . وقد تسبب ارتفاع المنـــازل وتلاصقها إلى حجب الشمس عن حارات الجيتو فأصبحت لذلك رطبة وغير صحية . تنتشر فيها الأوبئة وتسبب نسبة وفيات عالية (خاصة بين الأطفال) . وقد ترك الانحطاط الاقتصادى المعمارى للجيتو اثرا عميقا على وجدان اليهود القاطنين فيه عمق من انفصالهم عن العالم الخارجى ومن تدنيهم الحضارى .

وقد لخص دافيد . فرايد لندر — المفكر اليهودى الاصلاحى — المقدرات الفكرية لطالب المدرسة التلمودية (أو مثقف الجيتو) فى القرن التاسع عشر على النحو التالى : كان فى امكان الطالب ان يفتى عما اذا كان من الواجب رجم ابنة الحاخام الزانية ، ولكنه فى الوقت ذاته كان لايعلم شيئا عن البلد الذى يعيش فيه (فقد كان مرتبطا وجدانيا بارتس يسرائيل التى لم يزرها طيلة حياته والتى لايربطه بها اى رباط سوى دراساته التلمودية) .

ومن الحقائق الطريفة التى تدل على مدى تدنى مستوى اليهود الحضارى فى الجيتو أنه قامت معركة حامية الوطيس شغلت كل يهود أوروبا فى القرن الثامن عشر بين الحاخامين امدين وايبنشوتى عما إذا كانت الأحجبة التى يبيعها

الحاخام الثانى للدايات تحتوى على اسم المسيح الدجال شذباى تشفى أم لا . وقد ذكر اسحق دريتشو فى سيرة حياته الذاتية أنه حينما نصب حاخاما كان عليه أن يجيب على هذا السؤال : هناك طائر اسطورى يقال له الكيكى بو ، يأتى إلى العالم مرة كل سبعين عاما وينصق عليه ، فان أراد يهودى أن يأكل هذا البصاق فهل هذا حلال أم حرام .

وعلى الرغم من كل هذا التدنى الحضارى لم يكن يشعر اليهودى بأى أمن خارج أسوار الجيتو ، ففى الخارج كان يوجد عالم غريب وشرير ، أما فى داخل أسوار الجيتو فكان يوجد عالم كان يتصور اليهودى ان كل مافيه يهودى خالص ، فقد كان يمارس طقوسه اليهودية بكل حرفيتها وبدون حرج ، ثم يمتنع عن العمل يوم السبت حتى يعجل بعودة الماشيح المنتظر ليقود شعبه لأرض الميعاد وكان يمارس الإيمان العميق بأنه ينتمى إلى الأمة المقدسة والشعب المختار ، وكان يتلقى التأكيدات المختلفة بأن الجيتو هو وجود مؤقت يحفظ الله فيه الأمة وروحها إلى أن يحين الوقت الذى يشاء فيه عز وجل إعادة شعبه إلى أرضه وحريته . وقد تسبب هذا فى نوع من الانفصام فى الرؤية ، حتى أصبح العداء للاغيار من أهم ميكانزمات الضبط الاجتماعى داخل الجيتو ، وقد قدم عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى ثم عصر الاستنارة فى أوروبا واليهود داخل أسوار الجيتو الاقتصادية الوجدانية والفعلية وهى الأسوار التى أفرزت « الدائرة اليهودية السحرية » التى لا يمكن الفكاك منها كما قال أحد المفكرين اليهود ، أى انه كلما كانت أوروبا تزداد استنارة وعقلانية كان اليهود يزدادون غيبية وتصوفا وتخلفاً ، ويجب أن نتذكر أن خيرة مفكرى اليهود (ميمون وسبينوزا) لم يولدا فى الجيتو وفى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أخذت أسوار الجيتو فى السقوط الواحد تلو الآخر تحت ضغط الشعوب والحكومات الأوروبية التى كانت تحاول توحيد السوق القومية . وقد اكتسحت حركة الاستنارة

فى طريقها كثيرا من هذه الجنوات التى كانت تعد من مخلفات عصر انقضى وبدأت الأقليات اليهودية فى شرق أوروبا ووسطها صفحة جديدة فى تاريخها ، وكان كثير من الصهاينة يتصور انسقوط الجيتو سيسبب فى اختفاء اليهودية لان اليهودية ، حسب هذه الرؤية ، لا يمكن ان تتعايش مع ظروف الانعتاق والاندماج ، وبالفعل واجه كثير من اليهود صعوبة فى التكيف مع الاوضاع الجديدة ، ولذا طالب الصهاينة بانشاء دولة يمكن ان يمارس اليهود فيها شعائرهم وان يحيوا حياتهم الثقافية والحضارية والقومية دون تدخل من الاغيار . ولكن مع هذا تمكنت الأغلبية الساحقة من يهود العالم من الانتقال النفسى والاقتصادى من الجيتو إلى العالم الفسيح المضىء .

والدارس للصهيونية يلاحظ الآثار العميقة التى تركتها عقلية الجيتو على المفكرين الصهاينة وعلى كثير من المؤسسات الصهيونية ، وهذا ليس بالأمر الغريب ، فمعظم المفكرين الصهاينة نشأوا فى الجيتو أو فى أماكن مماثلة مثل الشتتل أو مناطق الاستيطان ، ويظهر أثر التفكير الجيتوى على الفكر الصهيونى فى تقديسه لكل ماهو يهودى وفى تصوره أن اليهود والدولة الصهيونية مركز الدنيا والتاريخ وفى فصله الحاد بين اليهودية والأغيار . ويمكننا أن نرى انشاء المستعمرات والمستوطنات الصهيونية فى فلسطين على شكل جزر مسلحة يقبع داخل أسوارها المستوطنون ، على أنها امتداد للرؤية الجيتوية . وقد اتقن المستوطنون الصهاينة اقامة هذه المستعمرات الجيتوية المسلحة حتى أنه كان يتم انشاؤها فى أقل من يوم ، فكانت وحدات المهندسين والوحدات المقاتلة تصل إلى موقع المستعمره وتبدأ فى اقامتها من الأجزاء الخشبية التى سبق إعدادها ، فتضع بعض الاكشاك أو الخيام التى تحاط بجدار خشبى مزدوج يملا فى الداخل بالحجارة الصغيرة لمنع نفاذ الرصاص ، كما تجهز حفر الأسلحة لأطلاق النار ويقام برج فى منتصف مساحة المستعمرة مزود عادة بنور كشاف ، وتحاط المستعمرة

فى النهاية باسوار من الأسلاك الشائكة وأحزمة من الألغام ، وقد أطلق هذا الاسلوب فى تشييد المستعمرات اسم « السور والبرج » (وقد بلغ هذا الاتجاه الاستيطانى الجيتوى قمته فى الأسوار والأبراج التى كانت تحيط بقنال السويس قبل أكتوبر ٧٣ والمعرفة باسم خط بارليف) . ويظهر أثر الجيتو على فكرة « الأمن الاسرائيلى » المبنية على الشك العميق فى الاغيار النظره الانفصالية للعالم باعتبار أن داخل الاسوار توجد الطمأنينة وأنه لا أمن ولا سلام لليهودى خارجها . وقد وصف افنيرى هذا الفصام أبلغ وصف حينما قال فى احـــدى مقالاته أن الطيار الاسرائيلى كان يقوم خلال النهار بضرب الأهداف العربية المدنية وبالليل يحلم بالروس والبولنديين يقتحمون عليه الجيتو ليبطشوا به أى أن الخوف الاسرائيلى لا نهاية له ولا حدود . ولم تنعكس العقلية الجيتوية على نظرية الأمن وحسب بل انعكست أيضا على السياسة الخارجية وعلى التعليم وفى التفرقة العنصرية ضد العرب . ولعل الأصرار على أن يكون الهستدروت والكيبوتس منظمات يهودية مقصورة على اليهود دون سواهم هو ضرورة من ضرورات الاستعمار الاستيطانى ، ولكنه فى الوقت ذاته تعبير عن الرغبة فى البقاء داخل أسوار الجيتو الفعلية والوجدانية . وحينما قامت الدولة اليهودية أحاطت المواطن الاسرائيلى بكم هائل من الرموز اليهودية فالعلم مشتقة الوانه من الطاليت وعليه نجمة داوود وشعار الدولة هو الميوراه وبيان اعلان اسرائيل لايتحدث إلا عن استشهاد « الشعب اليهودى » وتطلعاته الازلية للعودة . وهذه الدولة فى بنائها العام تشبه الجيتو إلى حد كبير ، فاقتصادياتها لا تزال معتمده أساسا على دعم يهود العالم ودول الغرب ، ولاتزال اسرائيل أكبر متلق للمعونات فى العالم ، أى أنها دولة ليس لها اقتصاد حقيقى وتعيش على هامش الواقع . كما أن اسرائيل من الناحية العسكرية تطلب دائما الحماية والدعم من دولة امبريالية كبرى مما يجعلها خادمة له تمثل مصالحه وتدافع عنها . واسرائيل لا تختلف عن الجيتو كثيرا من هذه الناحية لأنه كبناء

اقتصادى اجتماعى كان غير قادر على الدفاع عن نفسه وكان على سكانه دفع الضرائب الباهظة للملك أو الحكومة لحماية أنفسهم والضريبة التى يدفعها الاسرائيليون هى الحروب المستمرة لمساندة المصالح الأمبريالية فى المنطقة

ويبدو أن كثيرا من الصهاينة المسيحيين الذين ساعدوا فى توطين اليهود كانوا يشاركون فى هذه الرؤية الجيتوية (وأن كانوا ينظرون للجيتو « من خارجه » كمسيحيين عنصريين وليس من داخله كيهود معذبين). فحينما احتاجت الامبراطورية البريطانية لمستوطنين بيض ليشجعوا التجارة فى أحد ممتلكاتها طلبت من الصهاينة أن يقوموا بتجنيد اليهود لتنفيذ المهمة، وقد وقد كان هرتزل من كبار المتحمسين لمشروع شرق أفريقيا. وقد قبل المستعمرون الأوروبيون مشروع الاستيطان اليهودى فى فلسطين فى إطار هذا الفهم، ففى مجال الحديث عن هذا المشروع قال الايرل شافتسبرى « من هم أكثر الناس فى العالم احتراما للتجارة وهل يجد اليهودى موقعا أو مجالا أفضل من سوريا (بما فى ذلك فلسطين) لتنمية نشاطه؟ أليس لبريطانيا مصالحها الخاصة فى تحقيق هذه التغييرات الضرورية؟ » أى أنه لتنفيذ المشروع الامبريالى ولخدمة المصالح الامبريالية (المسيحية) يجب ارسال هذه الطائفة التجارية (المنعزلة) النشيطة للمنطقة المراد استيطانها وستقوم الطائفة بواجباتها على خير وجه خاصة وأنها ستظل معتمدة على الوطن الامبريالى الأم. ويطلق اصطلاح « الجيتو » الآن على احياء يهود شرق أوربا الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة واستوطنوا فيها، ولكن الاستخدام هنا مجازى لاقصى حد ويفترض استمرارا حيث لايوجد أى استمرار، فالجيتوات الامريكية تختلف فى بنائها الاقتصادى والمعمارى والوجدانى عن جيتوات شرق أوربا، وهى لا تختلف من قريب أو بعيد عن كل ضواحى أمريكا.

الفصل الثالث

المسألة اليهودية وآلام الانتقال

تفخر الكتابات الصهيونية بالإشارات إلى المسألة اليهودية دون محاولة من جانبها لتبين أصولها الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك حتى تظهر المسألة اليهودية وكأنها مشكلة عاطفية أخلاقية بل وميتافيزيقية ، وقد حاول كثير من المفكرين تحديد أبعاد المسألة اليهودية ، ولعل أكثر الدراسات عمقا فى هذا المجال هى دراسة المفكر اليهودى المعادى للصهيونية « فى كتابه » « المفهوم المادى للمسألة اليهودية » .

تعود جذور المسألة اليهودية إلى الظاهرة التى تتبعناها فى المحاضرة الأولى أعنى تحول الاقليات اليهودية (فى أوربا بالذات) إلى أقليات اقتصادية تعمل بالتجارة والربا . حيث أن المجتمع الإقطاعى المستند إلى انتاج القيم الاستعمالية لا يتناقض مع الرأسمالية بشكلها التجارى والربوى البدائى ، لذا لم يكن هناك وجود لأى مسألة يهودية فى المجتمعات الإقطاعية ، فالتاجر والمرابى اليهوديان كانا يقومان بدور حيوى مهم إذ كان التاجر يورد للمجتمع الاقطاعى السلع الكمالية التى يحتاج إليها ويصدر الفائض الانتاجى بينما كان المرابى يقرض الأمير الاقطاعى وكذلك الفلاح لشراء السلع الكمالية ولكن ــ كما بينا ــ كان يؤدى ظهور نشاط تجارى أو مصرفى محلى إلى ظهور مسألة يهودية .

وقد بدأت المسألة اليهودية فى الظهور فى أوربا ابتداء من القرن الثانى عشر ببداية ظهور رأسماليات محلية ، وقد كان التناقض يحسم ، إما بطرد

اليهود إلى شرق أوربا حيث المجتمعات الأقل تقدما ، أو باندماجهم في في مجتمعاتهم . وقد تم حسم التناقض فى فرنسا وانجلترا بهذه الطريقة ، ولم يعد اليهود إلى هذه البلاد إلا بعد أن سيطرت البورجوازيات المحلية ، ولم يتعد دور اليهود بعد عودتهم دوز التابع ، وبذا لم تنشأ مسألة يهودية فى بلاد الغرب المتقدمة ، وتم الانتقال فى هذه البلاد إلى مراحل رأسماليه متقدمة دون أن يحيق هذا هذا الانتقال العذاب بالاقلية الاقتصادية التابعة . ومن الملاحظ أنه عندما أعيد توطين اليهود فى أوربا الغربية فى القرن السادس عشر لم يعيشوا فى أحياء خاصة بهم كأقلية اقتصادية متميزة ، وانما اختلطوا بالشعب ككل فى مجتمع بدأ يتحول إلى التجارة .

وقد بدأ اليهود دورة جديدة فى مجتمعات شرق أوربا وخاصة بولندا حيث لعبوا دور التاجر و لمرابى مرة أخرى (كان ٨٦ ٪ من اليهود يعملون بالتجارة عام ١٨١٨) ، واستمر وضعهم مزدهرا أو عاديا حتى القرن الثامن عشر ، ولكن بانتقال المجتمع البولندى ومجتمعات شرق أوربا بدورها من الاقطاع إلى الرأسمالية بدأ اليهود يواجهون مشكلة للتأقلم مع الاقتصاد الجديد . فقد بدأت مراكز التجارة الاقطاعية تضمحل وحلت محلها مدن صناعية وتجارية جديدة ، مما ضيق الخناق على جماهير التجار اليهود وادى إلى تدفق المهاجرين إلى روسيا ، ومن ثم بدأت تناقش قضية التركيب الاجتماعى اليهودى وطرحت قضية « انتاجية اليهود » أى تحويل الاقلية اليهودية إلى أقلية منتجه وهى موضوعه أساسية فى الفكر الصهيونى وسنركز فى بقية هذه المحاضرة على وضع اليهود فى جاليشيا وروسيا فى القرن التاسع عشر (عصر نشوء الحركة الصهيونية) كمحاولة لفهم الجذور الاقتصادية التاريخية لهذه الحركة . وجاليشيا منطقة فى وسط أوربا ، كانت تتبع بولندا حتى عام ١٧٧٢ حينما ضمت إلى النمسا ، كان يبلغ عدد سكانها من اليهود ٢٥٠ ألف (أى حوالى ٩,٦ ٪ من مجموع السكان) . وحتى نفهم وضع وحتى نفهم وضع اليهود فى جاليشيا وروسيا ، علينا أن نذكر بعض

الحقائق العامة ، الخاصة بالمجتمع فى هذين البلدين ، فالنظام الاقطاعى فيها كان آخذا فى التداعى وبدأت الاطر القديمة تتآكل ، وكان النبلاء الإقطاعيون يحققون الجزء الأكبر من دخلهم من خلال الضرائب المفروضة على الخمور بل كانت ضريبة الخمور تمثل ثلث وأحيانا نصف دخل النبيل الاقطاعى ، ولذا كانت تفرض على الفلاحين حصة معينة من المشروبات الروحية ؛ فكان النبيل يدفع للفلاح جزءاً من ثمن محصوله على هيئة سندات يستبدلها بخمور يشربها فى الحانة . وقد أصبح سكر الفلاحين (سواء فى جاليشيا أو روسيا) هو أحدى المشاكل الاساسية للنظام الاقتصادى فى مرحلته الاقطاعية ثم الرأسمالية . وأصبح السكر معوقا أساسيا يقف حجر عثرة فى طريق احرز أى تقدم . ورغم أن هذه المشكلة كانت من صميم مشاكل المجتمع الاقطاعى فى جاليشيا ، إلا أننا نجد أن اليهود قد أصبحوا محورا لهذه المشكلة . فكما بينا فى المحاضرة الأولى ، كان اليهود يلعبون « دور الأسفنجة » بالنسبة للنبلاء ، ونحن نجدهم يلعبون هذا الدور أيضا فى جاليشيا وروسيا ، فكان اليهود هم الوسطاء بين الفلاحين والنبلاء ، ولذا كانت صناعة الخمور وبيعها تكاد تكون حكرا عليهم . علاوة على هذا كان اليهود يعملون بالربا وأعمال الرهونات ، كما أنهم كانوا ملتزمين يؤجرون امتيازات جمع الضرائب من على الطرق والكبارى ، وكانوا يؤجرون مطاحن الغلال ، (ولنذكر أنفسنا مرة أخرى أن هذه ليست « استغلالية يهودية » وأنما هى نمط اجتماعى لم يكن يفهم أحد ميكانزماته ، وأن وأن اليهود لم يكونوا يحققوا أرباحا لحسابهم وأنما لحساب النبيل الاقطاعى المسيحى) . وكان معظم أصحاب الفنادق الصغيرة من اليهود ، والفنادق الصغير لم يكن مكانا لايواء المسافرين والغرباء وحب ، وأنما كان مركز للتجارة المحلية والدوولية أيضا ، فصاحب الفندق كان يشترى المحصولات الزراعية الزائدة والدواجن والعسل من الفلاحين كما كان يبيعهم السلع التى يحتاجون اليها ، ولذلك نجد أن صك ايجار الفندق من النبيل الاقطاعى

كان ينص على شراء الفلاحين سلعا مثل الملح والسمك المملح (الرنجة) ، وبذا أصبحت الفنادق والتي يديرها اليهود في جاليشيا أو روسيا هي عصب التجارة المرتبطة بالنظام الاقطاعي ، سواء في علاقة المدينة بالقرية داخل الوطن الواحد ، أو في علاقة الدولة الاقطاعية بدولة أخرى .

وقد بلغ اشتغال اليهود بالتجارة الاقطاعية ان مدينة برودى في جاليشيا ، وهي المدينة التي كانت تتم فيها تجارة الترانزيت من روسيا إلى تركيا وبالعكس ، سميت بأورشليم (لأن كل سكانها كانوا تقريباً من اليهود ، وهي واحدة من خمس من أخرى كان كل سكانها يهودا) (ولعل اشتغال اليهود بالتجارة يظهر في تركزهم في المدن دون الريف) .

كان اليهود اذن يعيشون في مسام المجتمع الاقطاعي التقليدى الآخذ في التداعي وحين بدأ المجتمع الشرق أوروبي في التحرك نحو انماط انتاجية مختلفة عن النمط الاقطاعي ، كان لابد وان يرتطم بالاقليات اليهودية وقد أخذ هذا الارتطام في البداية اشكالا سليمة ورغبة صادقة في الاستفادة من اليهود وخبراتهم التجارية مع محاولة استيعاب الفائض السكاني اليهودى في ذات الوقت في اعمال منتجه .

وقد أصدرت الحكومة النمساوية ما يسمى ببراءة التسامح عام ١٧٨٥ الغرض منه « فرض » الانعتاق والاندماج على اليهود — ونحن نقول « فرض » لان الاقليات اليهودية في شرق اوروبا كانت على جانب كبير من التخلف الحضارى والاقتصادى . وقد حرمت براءة التسامح على اليهود ان يحصلوا على امتيازات جمع ضرائب أو تأجير شيء ، كما حرم عليهم بيع الخمور ، بل اتسع نطاق التحريمات بحيث اصبح من المحرم على اليهود السكنى في المناطق الريفية الا ليعملوا في الزراعة أو كحرفيين ، وألغت الحكومة المحاكم الحاخامية ، مما قلم من اظافر سلطة القهال وألغيت ايضا طوائف الحرفيين ،

كما منعت اليهود من ارتداء ازياء يهودية مميزة (ابتداء من عام ١٧٩١) .
وقد صحب هذه التحريمات منح اليهود سلسلة من الحقوق ، فمثلا ألغى قرار عام ١٧٧٣ ، الخاص بتنظيم الزيجات اليهودية (لمنع تكاثر اليهود المشهورين بالعائلات الكبيرة) والخاص بترحيل الشحاذين (اليهود) بالقوة إلى الحدود البولندية ، وانشأت الحكومة مزارعا لتوطين اليهود فيها حتى يعملوا بالزراعة ، فحاولت الحكومة توطين حوالى ١٤١٠ اسرة (عام ١٧٨٦ وفى مجال فرض الصبغة الألمانية على اليهود وعلمنتهم فرض عليهم ارتداء الازياء الاوروبية (الالمانية أو البولندية) وفرض على القهال انشاء نظام تعليمى ألمانى تديره الجماعة اليهودية بنفسها ، وأسس نظام تعليمى (١٠٤ مدرسة) اشرف عليه التربوى اليهودى الالمانى هومبرج ، كما فتحت المدارس والمعاهد العليا ابوابها امام اليهود (١٨٢٧) .

وقد منع الآباء من تدريس اولادهم التلمود قبل ان يكمل الأولاد دراستهم ، ولم تكن الحكومة تصدر تصريحا بالزواج الا بعد ان تقدم اليهودى بشهادة تدل على ان حاملها قد درس فى المدارس الجديدة . وكانت محاولة ألمنة اليهود وعلمنتهم تأخذ احيانا اشكالا طريفة ، فكانت الحكومة تفرض على اليهود المتقدمين بطلب رخصة زواج بأن يدرسوا كتابا كتبه التربوى اليهودى المستنير — أنف الذكر — عن الدين اليهودى ، وهو كتاب خال من كل الاحلام المشيحانية) . وكان على العروسين ان يشتريا نسخه منه ثم يدرسانه ويجتازا امتحانا فيه قبل عقد القران . بل أن الحكومة فرضت على اليهود ايضا اختيار اسماء ألمانية جديدة واسم اسرة بدلا من التقاليد اليهودية ، حيث كان لايحمل اليهودى اسم اسرة وانما يحمل اسمه واسم والده وحسب . وكان على التجار اليهود كتابة حساباتهم بالالمانية (وليس بالايديشيه هذه اللغة المقصورة على اليهود والتى كان يستخدمونها لاخفاء معاملاتهم التجارية غير القانونية) . ونلاحظ ان محاولة فرض لغة واحدة تتسق مع محاولة توحيد السوق القومى وتوسيعه . واذا كان اليهود قد تمتعوا

بمعظم الحقوق المدنية ، فقد اصبحوا ملزمين بكل الواجبات (التى كانوا معافين منها من قبل) مثل القيام باعمال السخرة فى رصف الطرق واصلاحها والقيام بالخدمة العسكرية .

وقد تحسنت أحوال اليهود الاقتصادية فاستثمر اثرياؤهم فى البنوك وفى اعمال الاستيراد والتصدير وتجارة الزيت وصناعته ، وقد زاد عدد اليهود من ملاك الضياع كما دخل اليهود الخدمة المدنية والقضائية ، وكانوا يشكلون حوالى ٥٨ ٪ من مجموع الموظفين والقضاه . كما انتخب كثير من اليهود فى المجالس النيابية والبلدية ومنحت الحكومة النمسوية اليهود حقوقهم السياسية الكاملة (١٨٤٩) . وقد ساعد كل ذلك على ان يسود فكر حركة الاستنارة اليهودية بعض الوقت فى هذه المنطقة واصبحت جاليشيا مركزا لأدب العبرية الحديث ، وساد الفكر الاندماجى بين القيادات اليهودية (وان انقسموا إلى قسمين : اندماجى ألمانى واندماجى بولندى) .

ومما هو جدير بالذكر ان مركز الهسكلاه كان مدينة برودى وهى أيضا كانت مركز التجارة اليهودية المتقدمة (وليس مجال نشاط صغار التجار) وقد نجح مفكرو الهسكلاه فى جاليشيا فى عرض فكرهم حتى أنهم نصبوا حاخاما اصلاحيا عام ١٨٣٨ (إلا أنه مات مسموما عام ١٨٤٨) .

غير أن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل ويعود ذلك إلى أسباب عدة ، لعل من أهمها تخلف الجماهير اليهودية الحضارى لوقوعها تحت تأثير الحاخامات الارثوذكس (للذين كانوا يكفرون اليهود الاصلاحيين) وتحت تأثير الحركات الحسيدية الغيبية . كما ساهم فى تعطيل اندماج اليهود أن ظهرت فى المجتمع بعض القطاعات الاقتصادية التى حلت محل لليهود ، وكان مما زاد التوتر فى المنطقة تضاعف عدد السكان فى مدى خمسين عاما . وقد عبر فشل اندماج اليهود عن نفسه فى عدة اشكال ، فبعد أن فتحت الحكومة بالتعاون

مع القهال عدة مدارس اجبارية لتعليم اليهود واستقدمت لها مدرسين يهود من المانيا قوبلت هذه المحاولة بمعارضة حادة من قبل المواطنين اليهود فاغلقت كل المدارس . وكذلك فشلت محاولة توطين ١٤١٠ عائلة يهودية فى المناطق الزراعية ، وحين حل عام ١٨٢٢ لم يكن يوجد سوى ٨٣٦ فلاحا يهوديا فى جاليشيا كلها . وعلى الرغم من أن المدارس الثانوية والجامعات فتحت أبوابها لليهود فإن عدد من التحقوا بها لم يتعد ١٥٨ يهوديا فقط (١٨٢٧) وبأنحسار تيار الاستنارة التقدمية ظهرت التيارات الصهيونية خاصة تحت تأثير سمولنسكين .

ولم يكن الوضع فى روسيا مختلفا عن الوضع فى جاليشيا ، سواء من ناحية الجدية فى محاولة أو من ناحية الفشل الزريع التى منيت به هذه المحاولات . كانت روسيا لا تضم أى يهودى داخل حدودها حتى بداية القرن الثامن عشر ولكن ما كاد ينتهى هذا القرن حتى أصبحت روسيا تضم أكبر أقلية يهودية فى أوربا . ويعود هذا إلى تقسيم بولندا وضم روسيا لبعض اجزاء من بولندا معظم سكانها من اليهود . وقد كان معظم يهود بولندا منظين داخل القهال ، وهو تنظيم شجعت الحكومة الروسية استمراره فى بادىء الأمر حتى يتم تحديد علاقة اليهود بالمجتمع الاقطاعى الروسى . فقد كان كل مواطن ينتمى إلى هيئة ما يرتبط بها اقتصاديا وحضاريا ، وكان النظام الروسى آنئذ يحاول دائما ربط الفلاح بالأرض وسكان المدن بالمدينة لان تحرك الجماهير كان يعطل من جمع الضرائب وتدفق الأموال المنتظمة على خزائن القيصر . ولكن تطور المجتمع فى روسيا أدى إلى ظهور نوع من الرأسمالية التجارية ، كما هو الحال فى بقية شرق أوروبا . وكما هو الحال دائما إرتبط هذا التطور بالاقلية اليهودية الاقتصادية غير المنتجة . وقد كان التركيب الطبقى للاقلية اليهودية فى روسيا على هذا النحو : —

٣٠ ٪ ملتزمين واصحاب حانات ، ٣٠ ٪ تجار ومرابين ، ١٥ ٪

حرفيين ، ١ ٪ زراعـة ٢١ ٪ بدون مهنة محددة ، ٣ ٪ يقودون بالاعمال الدينية .

وقد ازدادت الشكوى من اليهود آنئذ بأنهم لاجذور لهم ، يعيشون فى جهل مطبق ، غير قادرين على القيام بأى حرفه او مهنه ولايعملون بالزراعة ، متركزين فى صناعة الخمور (التى كان يظن الجميع سبب إنها بؤس الفلاحين ، غير واعين بأن السبب الحقيقى هو الطبيعة الطفيلية للمجتمع الاقطاعى ذاته) . ومما عقد الامور ان التجار اليهود بسبب عدم انتمائهم القومى او الاقتصادى الواضح (فهم كانوا لايتحدثون الروسية ولايدينون بالمسيحية) كانوا تابعين لبولندا ثم اصبحوا تابعين لروسيا (والنمسا) وبالتالى فكانوا يعملون بالتهريب ويتلاعبون بالأسعار مما جر عليهم حنق التجار المحليين وكان اليهود يتواجدون « حرفيا » على مفترق الطرقات المؤدية من مدينة لاخرى فى حاناتهم وفنادقهم . لكل هذا كان لابد وان يستوعب اليهود اقتصاديا وحضاريا لمنع اضطادهم ولتذليل السبيل امام التقدم الرأسمالى . وقد كونت لجنة لبحث المسائل اليهودية عام ١٨٠٢ للنظر فى احوال اليهود واصلاحها فعقد اجتماع مع رؤساء القهال الذين ارسلتهم طوائفهم اليهودية ليستعطفوا القيصر « الا يدخل اية اصلاحات على احوالهم » . بل ان اليهود حينما سمعوا عن الاتجاه نحو اصلاحهم صاموا حدادا لمدة ثلاثة أيام وصلوا من اجل ابعاد الاصلاح (هذا على عكس يهود سان بطرسبرج من كبار المموِّلين والمستنيرين الذين كانوا يمثلون دائما المدافعين عن الاستنارة) .

وحينما طلبت اللجنة من زعماء القهال ان يحددوا رأيهم فى الاصلاحات المرتقبة قرر المندبون أنه لايمكنهم اتخاذ قرار بالنسبة للجماعة اليهودية ككل ولابد من تأجيل البت لحين العودة لهم . فرفضت اللجنة هذا القرار وارسلت نسخة من الاصلاحات المقترحة إلى كل القهالات من خلال حكام المناطق الروسى فكان رد القهالات غريبا لامعنى له ، إذ طلبت اثنين : تأجيل

الاصلاحات لمدة تتراوح بين ١٥ ، ٢٠ ، عاما والايحرم اليهود من حق تأجير حق بيع الخمور (وهذا على جوهر المشكلة كما بينا). وهنا قررت الحكومة أن تستمر فى مناقشة الإصلاحات دون الرجوع لقيادة القهالات وأصدرت اللجنة قراراتها.

وقد كان أساس قرارات اللجنة هو مبادىء الحرية الإنسانية وتشجيع المبادرة الفردية ومنع كل أعمال القسر ، ولكن اللجنة مع هذا كانت تشعر أنه ثمة قسر مبدئى لأن اليهود كانوا مرتبطين بصناعات هامشية ، فجاء فى تقدير اللجنة :—

« طالما اليهود مسموح لهم بممارسة صنع وبيع الخمور ، سيكون من المستحيل أن نجعلهم يعملون فى مهن أخرى ، ولن يتوقف كره الجماهير لهم ... علاوة على هذا هل يمكن تسمية هذا القرار قسراً . . . إذا كنا نفتح أمامهم فى ذات الوقت مصادر عديدة للحياة — مثل الزراعة والمصانع والحرف ؟ » .

وبناءاً على توصيات اللجنة أصدر القيصر التشريع الخاص باليهود (يطلق عليها أحياناً اسم « دستور اليهود ») عام ١٨٠٤ ، وقد كان الدستور محاولة لتطوير اليهود على كل المستويات الاقتصادية والتربوية والوجدانية ، فنجد مثلا أن الدستور حاول فرض الأزياء العصرية على اليهود ، فسمح للتلاميذ اليهود الظهور بملابسهم اليهودية فى المدارس الابتدائية ، أما فى المدارس الثانوية والجامعات فكان عليهم ارتداء زى أوروبى ، كما طلب من الحاخامات وقيادات القهال وممثلى اليهود فى البلديات ارتداء زى روسى أو بولندى أو ألمانى ، كما فرض على اليهود أن يتعاملوا بإحدى اللغات الأوروبية المعروفة فى هذا المكان من العالم وهى الروسية أو البولندية أو الألمانية . وقد نص الدستور على ضرورة إتمام الأعمال التجارية بواحدة من هذه اللغات حتى يمكن توثيق هذه الأوراق قانونياً ،

وأصبحت معرفة إحدى هذه اللغات شرطاً لتعيين أى يهودى عضواً فى مجلس البلدية ابتداء من عام ١٨٠٨ . وقد توجه المشرعون الروس إلى مشكلة التعليم اليهودى وضرورة إعادة تعليم اليهود حتى يتأقلموا مع المجتمع الروسى ويندمجوا فيه ، وقد فتحت كل المدارس لليهود ومنعت منعاً باتاً محاولة تحويلهم عن الدين اليهودى ، وتعليمهم ما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودى . وفى حالة رفض اليهود إدخال أبناءهم مثل هذه المدارس، على الرغم من هذا التشجيع ، كان عليهم تأسيس مدارس خاصة على نفقتهم من خلال ضرائب تفرض لهذا الغرض ، وفى هذه المدارس كان لابد من تعلم إحدى اللغات الأوروبية الثلاث ، الروسية ، أو البولندية، أو الألمانية.

وبحلول عام ١٨٤٢ وبعد فشل المحاولات السابقة قامت الحكومة الروسية بمحاولات أخرى لصبغ اليهود بالصبغة العلمانية ، فتقدم الوزير أوفانوف وزير التعليم الروسى باقتراح لتسهيل اندماج اليهود بإنشاء مدارس علمانية خاصة بهم يتعلمون فيها اللغة الرسمية والعبرية والعلوم العصرية ، وقد تقدم أوفانوف بهذه الاقتراحات بعد أن لاحظ « علمانية » اليهود واندماجهم فى ألمانيا ، وبالفعل تم إنشاء النظام التعليمى الجديد باعتراف الألمانى اليهودى ليلينتال وأطلق على المدارس الجديدة اسم « مدارس التاج ». غير أن المشروع قوبل بالرفض الشديد من الجماهير اليهودية التى كانت واقعة آنئذ تحت تأثير الحسيدية (كانت هذه الجماهير تطلق على ليلينتال لفظة « الحليق » لأنه كان يحلق لحيته ويقص شعر رأسه على عكس تعاليم سفر اللاوين وعلى عكس عادة اليهود الأرثوذكس) .. وكان الرفض يأخذ أحياناً شكل الهجوم الجسدى المباشر ، ففى بلده منسك (التى أصبحت فيما بعد مركزاً للنشاط الصيونى المكثف) اضطرت سلطات إطفاء الحرائق للتدخل لفض مظاهرات الجماهير الغاضبة . ومع هذا فقد وجد ليلينتال بعض اليهوديين من دعاة الاستنارة اليهودية ، كما أن الحكومة الروسية من

ناحيتها أعفت الطلبة الذين يلتحقون بالمدارس العلمانية من الخدمة العسكرية (ألغى نظام التجنيد الإجبارى كلية عام ١٨٥٥) .

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات، فإن الطلبة اليهود رفضوا الالتحاق بالمدارس العلمانية ، ففى عام ١٨٥٢ وفى مدينة أشكلوف البالغ عدد سكانها من اليهود ١٨ آلاف لم يزد عدد اليهود التلاميذ فى مدارس التاج عن ٢٧ ، وفى فايتبسك التى كان يزيد عدد سكانها اليهود عن ١٠ آلاف لم يزد عدد التلاميذ عن ١٩ . وبعد مرور عشرة أعوام من إنشـاء هذا النظام التعليمى لم يزد مجموع عدد الطلبة فى المدارس عن ٣٢٩٣ ، وقد استقال أوفانوف عام ١٨٤٨ ، كما ترك ليلينتال روسيا واستقر فى الولايات المتحدة . وقد استمرت هذه المحاولات حتى عام ١٨٨١ تقريباً حينما تحول الاتجاه الحكومى للرسمى من محاولة دمج اليهود إلى محاولة إعطاء شكل قانونى لعزلتهم .

أما فى المجال الاقتصادى فقد حاول المشرعون الروس تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادى منتج وصرفهم عن الاشتغال بالتجارة والحرف البدائية والربا (وهى محاولات ساهم فيها يهود الغرب المندمجون) . فقد نص الدستور على حرمان القهال ، هذه المؤسسة الإقطاعية الدينية ، من سلطة فرض أية ضرائب على اليهود ، كما حظر عليها « طرد » اليهود من «حظيرة الدين» وذلك لخلخلة قبضتها المحكمة على الأقلية اليهودية ، وقد تقرر أن يتم اختيار رؤساء القهال والحاخامات عن طريق الانتخاب (مرة كل ثلاثة أعوام).

ولكن كان أهم قرار فى هذا التشريع هو حرمان اليهود من تأجير امتياز أو التعامل فى الخمور ، وقد قسم اليهود إلى الأقسام التالية : — زراعيون ، وعمال مصانع وحرفيين ، وتجار ، وكان على كل اليهود أن يسجلوا أنفسهم حسب إحدى هذه التقسيمات . . وكان مصرحاً لكل اليهود أن يشتروا أى أرض شاغرة داخل مناطق الاستيطان ، وفى بعض المناطق

الأخرى ، كما وضعت الحكومة تحت تصرفهم بعض اراضى القيصر فى المناطق الغربية . اليهود الذين يعملون بالزراعة من الضرائب لمدة خمس أعوام وأعفى المزارعون اليهود من الضريبة المزدوجة التى كان يدفعها اليهود حتى بعد انقضاء مدة الاعفاء من الضرائب .

وبخصوص القانون الخاص بالصناعة ، فقد قدمت قروض لمن يريدون العمل بالصناعة ، كما اعفوا ايضا من الضريبة المزدوجة ، واعفى الحرفيون ايضا من الضرائب الخاصة باليهود وسمح لهم بالعمل فى كل الحرف (داخل مناطق الاستيطان) وان ينضموا لنقابات الحرفيين ، كما حاولت الحكومة الروسية ان تبحث عن عمل للحرفيين الذين لم يعثروا عمل داخل الاطار العام . وقد اتت التشريعات أكلها فى بادىء الامر ، اذ نشأت طبقة من التجار الاثرياء الذين تكونت عندهم ثروة لا بأس بها ، فساهموا فى انشاء الطرق الحديدية والمناجم وصناعات النسيج وتصدير الاخشاب وساهموا فى انشاء البنوك وتلقوا تعليما علمانيا . وقد صاحب هذا قيام طبقة من المثقفين اليهود من الاطباء والمحامين والمهندسين والصحفيين والعلماء . وقد شكلت هذه الحركة الاساس الاقتصادى لحركة الاستنارة اليهودية (تماما كما كانت تشكيل البروليتاريا اليهودية الاساس الاقتصادى للحركات العمالية الثورية اليهودية) . وقد رفضت هذه الطبقة الثرية المستنيرة التحدث باليديشيه وتعاونت مع الحكومة فى نشر الثقافة العلمانية بين اليهود وفى محاربة المؤسسات التربوية الدينية مثل بيت هامدراش . وقد حاولت الحكومة الروسية من جانبها تشجيع هذه الطبقة ، فألغت التجنيد الاجبارى (١٨٧٤) . وقد كان يتم تجنيد ابناء الاقليات حتى يتم صبغتهم بالصبغة الروسية) .

وعلى الرغم من نشوء هذه الطبقة الا أن المحاولات بالنسبة لجماهير اليهود وقد باءت بالفشل لأسباب عدة من بينها تخلف اليهود الاقتصادى

والحضارى ، وتزايد عددهم ، فبرغم معدلات الهجرة العالية إلى روسيا وإلى الولايات المتحدة ورغم اندماج اعداد لابأس بها فان معدل تزايد الـكان اليهود كان يفوق بكثير معدل الهجرة والاندماج ، فقد كان عدد اليهود عام ١٨٥٠ ٢,٣٥٠,٠٠٠ ولكنه تضاعف فى خلال خمسين عام على الرغم من معدل الهجرة المرتفع ، ومما عقد الامور ظهور الافكار السلافية القومية الاوتوقراطية بعدائها للغرب « المنحل »ولافكار الرأسماليين « الماديين »وظهور الاشتراكية الثورية (التى كان اليهود وجود ملحوظ فيها نتيجة لتحول اعداد كبيرة من اليهود الى بروليتاريا كادحة أو دثه) .

وقد كان هناك عنصر مسيحى ارثوذكس قوى فى هذه الدعوة السلافية مما اقام كثيرا من الصعوبات فى طريق اليهود نحو الاندماج الحضارى .

ولقد كان من عناصر تفاقم المشكلة ايضا زيادة معدلات تطور الرأسمالية الروسية الامر الذى ادى إلى حتمية وسرعة تحطيم كل مخلفات الاقطاع مثل الجيتو والشتتل والاشكال الاقتصادية ٪ الاجتماعية المتخلفة الأخرى التى كان اليهود مرتبطين بها (شأنهم فى ذلك شأن بعض الاقليات القومية والدينية الأخرى وسكان المناطق الآسيوية) . أى أن فشل شأن اليهود فى التأقلم مع الاقتصاد الجديد وتخلفهم الحضارى وتكاثرهم وسرعة معدل تطور الرأسمالية الروسية واوقراطية القومية السلافية ، كل هذه عناصر أدت إلى فشل تحويل اليهود إلى قطاع إقتصادى منتج . ومما عقد الامور حركة تحرير قنان الارض عام ١٨٦٠ اذ انها ضيقت من الرقعة الزراعية التى يمكن توطين اليهود فيها ، لكل هذا نجد ان الهجرة اليهودية كانت تتجه داخل روسيا حتى عام ١٨٧٠ ، من ليتوانيا وروسيا البيضاء إلى جنوب روسيا وهذه هى فترة الهسكلاه ، ولكن العناصر السابقة انهت هذه المرحلة وبدأت الهجرة إلى خارج روسيا . واذا نظرنا إلى تقسيم اليهود الطبقى فى روسيا فى آخر القرن التاسع عشر نجد انه لم يتغير كثيرا فأكثر من ٣٨ ٪

يعملون بالتجـــارة ، ٣٥ ٪ يعملون بالحرف والصناعة ، ٣ ٪ فقط يعملون بالزراعة ، وكان ٧٢٫٨ ٪ ممن يعملون بالتجارة داخل مناطق الاستيطان من اليهود .

وادت هذه الاوضاع بالتالى إلى اتخاذ الحكومة الروسية لاجراءات قانونية ٪ اقتصادية لمجابهة هذا الوضع ، فأصدر القيصر اوامره فى ٢٢ اغسطس عام ١٨٨١ بالقيام بتحريات عن النشاطات الاقتصادية « الضارة » التى يمارسها اليهود توطئة لتصفيتها ، وفى اكتوبر ١٨٨١ أصدر القيصر أوامره للجنة المكلفة باعادة النظر فى المسألة اليهودية وكانت هذه اللجنة تعرف باسم « لجنة اجناتيف » ، وفى ربيع ١٨٨٢ قدمت هذه اللجنة تقريرها عن المسألة اليهودية وجاء فى هذا التقرير « ان سياسة الكسندر الثانى التسامحية » قد فشلت وان قيام المعارضة الشعبية ضد اليهود فى روسيا نفسها قد برهن على ان من الواجب اتخاذ اجراءات جديدة ضد اليهود الروس وفى نهاية التقرير قدمت اللجنة عدة توصيات نفذها القيصر فى صورة « اجراءات مؤقتة » . ونظرا لان هذه الاجراءات المؤقتة صارت نافذة المفعول فى يوم ٣٠مايو ١٨٨٢ فانها كانت تذكر دائما على انها « قوانين مايو » واخذت هذه القوانين أو هذه الاجراءات تصدر تباعا وعلى فترات كلما رأت الحكومة الروسية خطرا عليها من النشاط السياسى أو الاقتصادى الذى يقوم به اليهود وهذه القوانين يمكن ان نوجزها فيما يلى :—

١ — غير مسموح لأى يهودى بالاستيطان — من جديد — فى منطقة ريفية فى روسيا ولا حتى داخل مناطق الاستيطان .

٢ — من حق السكان الروس فى القرى طرد اليهود من قراهم وذلك بقرار خاص يصدره رئيس القرية .

٣ — اى يهودى يغادر قريته لا يسمح له بالعودة إليها مرة ثانية .

٤ ـ لا تجديد لعقود الايجار المبرمة مع اليهود .

٥ ـ غير مسموح بتشغيل اى يهودى فى المناطق الريفية .

٦ ـ غير مسموح لليهود المقيمين فى المناطق الريفية ـ اصلا ـ باستجلاب أى قريب لهم إلى هذه المناطق وإذا حدث ذلك يطرد اليهودى من قريته .

٧ ـ تحديد الطلاب اليهود فى المدارس الاعدادية والثانوية وفى الجامعات بنسب معينة يحددها المجلس التعليمى فى روسيا .

٨ ـ تخفيض نسبة عضوية اليهود فى القضاء الروسى من ٢٢ ٪ ، إلى ٩ ٪ .

٩ ـ اى يهودى يعيش داخل روسيا ويقوم بتوسيع مجال نشاطه الاقتصادى يعاد فورا إلى منطقة الاستيطان .

١٠ ـ اى يهودى يغير من وضعه كمهنى إلى تاجر يسقط حقه فى الاقامة فى روسيا ويعاد إلى منطقة الاستيطان .

١١ ـ تحريم اقامة اليهود فى موسكو (صدر هذا القرار فى ١٨٩١)

١٢ ـ اغلاق معبد موسكو وتحريم استخدامه .

وقد قضت هذه القوانين على فرص اندماج بعض قطاعات اليهود فى المجتمع الروسى ، مما زاد من هجرتهم إلى الولايات المتحدة ، وخلق مناخا اقتصاديا/ فكريا قضى على الحركات الاستنارية الاندماجية وشجع الافكار الطوبابية والصهيونية ، خاصة وان صدور قوانين مايو قد صاحبه وقوع بعض الحوادث الدامية ضد الاقليات الدينية والقومية فى روسيا ، وصاحبها ايضا قوانين تحدد عدد الدارسين من اليهود فى المدارس الروسية (١٨٨٦) .

ولقد قدر للمسألة اليهودية أن تحل ، ولكن لم تكن الصهيونية هى المسئولة عن ذلك (بل يمكن القول بأن ظهور الصهيونية يعوق اتمـــام هذه العملية التى ستؤدى إلى تحول اليهودية إلى انتماء دينى وحسب والى

سقوط المفاهيم الدينية / القومية التى افرزها الوضع الاقتصادى المتميز للأقليات اليهودية) . فقد اندمج يهود غرب أوروبا فى مجتمعاتهم ، وازداد هذا الاندماج بعد انحسار موجه الهجرة الشرق أوروبية . اما فى المانيا ، فنتيجة لظروفها الخاصة حلت المسألة بالطريقة النازية : أى الابادة (بعد فشل محاولات التهجير القسرى لليهود) .

اما فى الولايات المتحدة ، فعلى الرغم من ان الجذور التاريخية الجيتوية الشرق أوروبية لا تزال لها أثر على تكوين الأقلية اليهودية الاقتصادى والنفسى (مثل تركزهم فى احياء خاصة بهم ومثل زيادة عددهم فى الصناعات الاستهلاكية والمهن الحرة) الا ان الصورة العامة هى صورة أقلية حققت الاندماج الاقتصادى والحضارى شبه الكامل (ومن هنا كان انعدام الهجرة تقريبا منها إلى اليهود) . وقد حلت الثورة البلشفية المسألة اليهودية فى روسيا بتحقيق المساواة بين كل الاقليات الدينية والعرقية ، ومع هذا لا تزال الحركة الصهيونية تحاول اجتذاب بعض قطاعات اليهود السوفييت حتى تستعيد التوازن العرقى فى الدولة الصهيونية . كما ان التركيب الطبقى ليهود روسيا لايزال إلى حد ما غريبا على الرغم من محاولات الحكومة السوفيتية توطين اليهود فى مقاطعة بيروبيدجان ليعملوا بالزراعة ، اذ ان آخر الاحصاءات تشير الى أن عدد اليهود الذين يعملون بالزراعة فى الاتحاد السوفيتى يبلغ عدد ١٠٠ ألف ولكنهم يتركزون فى الاعمال الادارية .

ومن الضرورى ونحن ندرس المسألة اليهودية ان نميز بينها وبين المسألة الاسرائيلية ، فالمسألة اليهودية هى مشكلة يهود شرق اوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر ، أما المسألة الاسرائيلية فهى مشكلة التجمع الاستيطانى الصهيونى وخاصة جيل الصابرا الذى ولد على أرض فلسطين ونشأ فيها ولا يعرف له وطنا آخر .

الفصل الرابع

معاداة السامية

ترجمة لعبارة «انتى – سيمتيزم» التى تعنى حرفيا «ضد السامية» أو معاداة اليهود واضطهادهم ، وكان الصحفى الألمانى ولهلم مارهو أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٨٧٩ وذلك بعد الحرب البروسية – الفرنسية التى تسببت فى انهيار كثير من الماليين الألمان مما جعلهم يلقون باللوم على اليهود . ولكن ظاهرة اضطهاد اليهود ورفضهم من جانب بعض الشعوب والطبقات تعود إلى العصور القديمة ، فكثير من الكتاب الرومان بما فى ذلك شيشرون قد عبروا عن ضيقهم باليهود الموجودين فى روما ، ونجد نفس الظاهرة فى العصر المسيحى ثم فى العصر الحديث ، ولكن رغم اجماع هذه الحضارات على النفور من اليهود واضطهادهم فاننا نجد أن الأسباب التى كانت تؤدى إلى هذا الاضطهاد وكذلك أشكال الاضطهاد نفسها تختلف من حضارة لأخرى . ففى الحضارات القديمة كان من أهم أسباب النفور بين الرومان واليهود هو عادات اليهود وسلوكهم فى حياتهم الخاصة العامة . فالوجدان الوثنى الرومانى لم يكن قادرا على تفهم هذه الأقلية الدينية التى لاتعبد زيوس وأ ديا من الآلهة المعروفة ، والتى يتمسك أفرادها بدينهم بشكل متعصب فريد فى نوعه غير معروف للرومان الذين كان لايشغل الدين حيزا فى وجدانهم . كما أن اليهود فى هذه الحضارة الوثنية كانوا يضطرون إلى العيش منعزلين بجوار المعبد اليهودى حتى تمكنهم أن يقيموا شعائرهم الدينية ،

ومما زاد من عزلتهم إقامة شعائر يوم السبت فقد حتم هذا عليهم أن يعيشوا متجاورين ومنعزلين عن الآخرين . ولم يكن اليهود قادرين على التعامل مع جيرانهم أو التزاور معهم بسبب قوانين الزواج المختلط (التي تحرم الزواج من الأغيار) وبسبب قوانين الطعام التي جعلت من الصعب على اليهودي تناول وجبه طعام مع جاره . وقد كان الرومان يتهمون اليهود بأنهم شعب من الشحاذين الكسالى الذين يتقاعسون عن عمل أي شيء (وذلك بسبب يوم السبت بشكل خاص) . ولكن النفور الوثني من اليهود لم يأخذ قط شكل اضطهاد جسدي أو تفرقة عنصرية ، بل ظل أساسا نوعا من الرفض وعدم التفهم الوجداني (اللهم إلا في حالات خاصة ونادرة) . وكان المؤرخون اليونانيون والرومان يكتفون باشارات عابرة «لهذه الجماعة البالية الصغيرة» هؤلاء المتعصبين ضيقي الأفق» «أو المستبدين برأيهم الذين يحاربون دفاعا عن الختان والطعام الذي لا يحتوي على لحم «خنزير» . وقد شكى شيشرون من كثرة عددهم وأنهم يلتصقون الواحد بالآخر ، ويقول هوراس في إحدى قصائده «فليصدق اليهودي ابيلا الخرافات اما أنا فلن أصدقها» وعدم الاكتراث الوثني أمر مفهوم لأن الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية كانتا تضمان جزءاً كبيراً من العالم المعروف آنئذ ، ولم تكن الأقلية اليهودية تشغل منه إلا حيزاً ضئيلا ، كما أن اليهود كشعب لم تكن له أي أهمية تذكر (فمن المعروف أن هيرودوتس الذي كان يسجل كل كبيرة وصغيرة لم يذكر اليهود بخير أو بشر) ، ولم يكن يتنبه أحد لليهود الا حينما تقوم فتنة أو ثورة ، ولعل أكبر دليل على عدم اكتراث الرومان باليهود أنه في أيام الثورة الشعبية اليهودية ضد أثرياء اليهود في فلسطين قام تيتوس بهزيمة جماعات المتمردين ثم دمر الهيكل ولكنه لم ينتظر لينتهي من حملته ، بل أوكل المهمة لقائد روماني آخر وسافر هو إلى روما . وقد منحت الإمبراطورية الرومانية اليهود حقوق المواطنة عام ٢١٢ ميلادية .

أما في العصور المسيحية فقد اختلف الوضع قليلا ، فاليهود قد أصبحوا

هذه الأقلية التي تؤكد أن يسوع المسيح ليس موسلا من الله وأنه ليس المسيح المخلص ، بل والصقت بهم تهمة قتل المسيح . وقد بحثت معاداة السامية الدينية لنفسها عن نصوص دينية لتدعم عصبيتها ووجدت ضالتها فى نصوص عدة فى الكتاب المقدس ومع هذا يمكن القول ان وضع اليهود فى العالم المسيحى لم يكن سيئا على الإطلاق حتى القرن العاشر والحادى عشر ، خاصة وان الأساطير المسيحية فى العصور الوسطى كانت تتسم بالغموض فى موقفها من اليهود ، فاليهود هم حقا قتلة المسيح وصالبيه ولكنهم بهذا يصبحون قابيل ولكن الذى يقتل قابيل — حسب هذه الأساطير — سيثأر الله منه سبع مرات! كما أن اليهود شعب طريد ، ولكنه فى الوقت ذاته شعب شاهد على عظمة الكنيسة لأنه نظراً لسوء حالته . يدل على أن الدين المسيحى هو الدين الحق . وإلى جانب هذا، كان يوجد جانبا ايجابيا « رومانسيا » فلليهود وضع خاص لأن آباءهم هم الذين أعطوا المسيحيين العهد القديم وأعطوهم أيضاً الأنبياء والمسيح ذاته . أى أن الأسطورة المسيحية ذاتها كانت متعادلة تجاه اليهود . ولكن بدأ المجتمع الأوروبى الزراعى فى التحول الاقتصادى التدريجى البطىء ، وقد صاحب هذا ارسال الحملات الصليبية إلى الشرق لفتح الأسواق وفى طريقها صبت جام غضبها على اليهود ، وحاولت فرض المسيحية بشكل تعسفى ، وكانت معظم الحركات المعادية لليهود « شعبية » بمعنى أن الجماهير البائسة هى التى كانت تقوم بالهجوم على اليهود ظنا منها أن اليهود هم العدو الحقيقى . وكانت الكنيسة فى كثير من الأحيان تدافع عن اليهود ضد هذه الهجمات . ولكن من الطريف أن بعض هذه الحملات الصليبية قد مولها تجار ومرابون يهود . وقد بدأت منذ هذا التاريخ حركات طرد اليهود من بلد لآخر فطردوا أولا من انجلترا ثم من فرنسا ثم من ألمانيا وأسبانيا وحطوا رحالهم فى هولندا وبولندا وروسيا . وقد تفاوتت فى هذه الفترات أشكال الاضطهاد ومدى عنفه من مجرد فرض ضريبة على اليهود أو طردهم من البلد ، إلى تعذيبهم وقتلهم (فى الحالات النادرة) :

ومع العصر الحديث ظهر شكل جديد هو معاداة السامية العنصرية ، فقد ظهرت فى القرن التاسع عشر فكرة « القوميات » وصاحبتها دراسات مختلفة لاكتشاف « عبقرية » كل أمة وكل شعب ، وكان من أكثر التقسيمات شيوعا ، تقسيم المفكر الفرنسى ارنست رينان للغات إلى لغات آرية وأخرى سامية ، وقد استخلص منها بعض المفكرين تقسيم الأمم إلى أمم وعبقريات آرية أوتيبوتونية (تؤكد أخلاق الجمال) وأمم وعبقريات سامية (تؤكد جمال الأخلاق) ، وكان اليهود – بطبيعة الحال – يوصفون أنهم من الفريق الثانى . وكان المفكر الصهيونى موسى هس من المؤمنين بهذا التقسيم ومن الموافقين عليه . وحول المفكر الفرنسى جوبينو هذه النظريات إلى أساس واطار شامل لتحليل التاريخ والسياسة ، فرأى أن المحرك الأساسى للصراعات التاريخية هو الانتماءات العرقية . ووقف بعض العنصريين هذا التحليل لتأكيد أن اليهود عنصر سامى لا يمكن أن يندمج بأية حال وتحت أية ظروف فى الحضارة الآرية المتفوقة ، وان الصراع بالتالى هو بين الاريين والساميين وليس بين الرأسماليين والعمال . وقد خلقت هذه النظريات العنصرية موقفاً صعبا للغاية بالنسبة لليهود ، فمعاداة السامية الوثنية كانت تتركهم وشأنهم ومعاداة السامية الدينية كانت تتركهم أيضاً وشأنهم إلى حد كبير ، وكان يمكن الإفلات من العذاب عن طريق اعتناق المسيحية ، أما معاداة السامية العنصرية فلا فرار منها لأن الإنسان يمكنه أن يعتنق المسيحية ولكنه لا يمكنه أن « يعتنق » الارية .

ولمعاداة السامية فى الغرب تراث طويل فولكلور جذوره عميقة ، فتهمة الدم هى إحدى التهم التى يلصقها المعادون للسامية باليهود منذ العصور القديمة ، وهى اتهام اليهود بالقتل واستعمال الدماء فى طقوسهم الدينية وأعيادهم وخصوصا عيد الفصح الذى يقال أن خبزه المقدس يعجن بدماء الضحايا . وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الإغريق والرومان أى إلى ما قبل العصور المسيحية (إذ يذكرها يوسيفوس فى معرض رده على ابيون) . ولكن تهمة

الدم لم تأخذ بعدها الجاد الا فى القرون الوسطى ، وأدت هذه التهمة إلى محاكمات ومذابح لليهود على مر العصور ، وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة واقناع الناس ببطلانها ولكنهم فشلوا واستمرت تهمة الدم مرتبطة ارتباطا وثيقاً بصورة اليهودى حتى عهد قريب . ومن أشهر تهم الدم فى العصر الحديث قضية « دمشق سنة ١٨٤٠ وقضية تيتسا اسلار سنة ١٨٨٢ وقضية بولنا سنة ١٨٩٩ وقضية بيليس سنة ١٩٠٣ ، كما ظهرت تهم القتل الشعائرى فى بولندا وبلغاريا وحاول النازيون والمعادون للسامية أحياء هذه التهمة وتذكرة الناس بها .

وهناك أيضاً تهمة تدنيس خبز القربان المقدس . وهى اتهام اليهود بأنهم كانوا يدنسون ويعذبون الخبز والخمر اللذان يتحولان إلى جسد المسيح ودمه فى القدس الكاثوليكى . وقد شاع هذا الاتهام فى أوائل القرن الثانى عشر وكان مصدره هو الافتراض بأن اليهود كانوا يرغبون فى تجديد عذاب السيد المسيح . وكان التلمود هو أحد الأهداف الرئيسية لأعداء اليهود ، واتهم اليهود بأنهم يحاولون دائما السيطرة على العالم (بروتوكولات حكماء صهيون) كما اتهموا أثناء الوباء الأسود فى نهاية العصور الوسطى فى أوروبا بأنهم هم سبب انتشار هذا الوباء ، وأنهم قاموا بتسميم الآبار (ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوباء قد انتشر فى العالم الإسلامى وقاسى منه العرب مسلمين ومسيحيين ويهود ولم يوجه اللوم لأحد) ، وقد استغل كثير من الساسة العداء لليهود لصرف غضب الشعب عنهم ، فعلى الرغم من أن بسمارك مثلا كان لا يمكن أى كره شخصى لليهود ، فقد وجد أنه من المفيد اثارة العداوة ضدهم لتوحيد الألمان « الآريين» ، وكانت حادثة دريفوس أيضاً تعبيراً عن نفس الظاهرة .

ومن أشهر المذابح ضد اليهود مذابح محاكم التفتيش (التى كانت موجهة ضد المارانوس وليس ضد اليهود) ومذابح القوزاق والأوكرانيين تحت قيادة شميلنكى ضد يهود بولندا فى القرن السادس عشر . واليوجرومز ضد يهود روسيا (خاصة حادثة كيشينيف) . ولعل ابادة اليهود على يد النازى

كانت أوسع المذابح نطاقا ضد أي أقلية يهودية في التاريخ (وسنعرض لها بشيء من التحليل في المحاضرة التالية).

ويمكننا تفسير هذا الكره الموجه للأقليات اليهودية على أنه كره المجتمعات العبودية والاقطاعية الزراعية المبنية على الاقتصاد التبادلي لكل من يعملون في شئون المال والتجارة ويقفون على هامش الحضارة ويتنقلون بين الحضارات المختلفة ويتحدثون لغة تجارية غريبة على الأذان وينقلون قيما أخلاقية مخالفة عن قيم المجتمعات الزراعية الثابتة والمستقرة . ومع ذلك فيمكننا القول بأن هذه العداوه كانت من شأنها أن تبقى كامنة طالما كانت الأقليات اليهودية تلعب دورا هاما وحيويا في نقل السلع الزائدة بين المجتمعات ، وفي خلق نظام انمائي عالمي سهل التجارة ، ولذلك فقد كان كثير من الملوك يستقدمون اليهود إلى ممالكهم ، وكانوا يدافعون عنهم دفاعا مستميتا بل يقفون ضد تنصيرهم ، لأن في هذا تقليلا لدخل الملك واضعافا للنشاط التجاري . ولكن حينما كانت تظهر طبقة رأسمالية محلية (مسيحية) فان العداوة الكامنة سرعان ما تنشط وتتحول من كره أو عدم اكتراث نحو أقلية دينية غريبة إلى محاولات لطرد اليهود أودمجهم باعتبارهم طبقة منافسة للتجار الناشئين ، وطبقة مستغلة وطفيلية بالنسبة للفلاحين والنبلاء الذين يقفون ضد التطور من الإقطاع إلى الرأسمالية. ولذلك يمكننا القول بأن القانون العام الذي يتحكم في معاداة السامية هو مدى تطور المجتمع الاقتصادي الاجتماعي فاذا كان المجتمع اقطاعيا زراعيا مستقرا فان معاداة السامية تكون امكانية كامنة وتوجد على مستوى البناء الفوقي وحسب ، ولكن إذا بدأ المجتمع في الانتقال من الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية التجارية (ثم الصناعية) فان معاداة السامية تنشط بسبب وضع اليهود وارتباطاتهم وتصبح لمعاداة السامية أساس اقتصادي ، أي أنها توجد حينئذ على مستوى البناء التحتي ، أما إذا كان المجتمع مجتمعا رأسماليا متقدما يسيطر عليه الرأسمالي المحلي فان الرأسمالي اليهودي عادة ما يندمج في الطبقة الرأسمالية الحاكمة ويصبح جزءاً منها لا يتهددها بأي خطر ولذلك تعود معاداة

السامية كامكانية كامنة وحسب أى توجد على مستوى البناء الفوقى وحده مرة أخـــرى .

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن معاداة السامية فى العصر الحديث كانت تظهر بشكل حاد فى الدول التى لم يصل فيها معدل التطور الرأسمالى إلى درجة كبيرة (ألمانيا وبولندا وروسيا) ولم يظهر فى بلاد رأسمالية متقدمة (فرنسا وانجلترا وأمريكا) . ولكن يجب أن نبين أن وجود الأفكار الغيبية الأسطورية المسيحية عند اليهود ، وتصورهم على أنهم أعداء الله ، كما أن رؤية الخلاص المسيحية الخاصة بضرورة تنصير اليهود قبل حلول الخلاص النهائى ، كل هذه الأفكار كانت تجعل الإمكانية « الفوقية » الكامنة قوية ومتحفزة حتى تحين الفرصة لتعبر عن نفسها ، ولذلك فأينما كانت الجماهير تعانى فانها كانت تصطاد اليهودى » عدو الله » الذى كان بالنسبة لها أيضاً التاجر ولولا هذه الأفكار أو الأشكال المسيحية لعبرت الجماهير عن سخطها « بشكل » آخر ، أو من خلال « فكرة » أخرى . ولعل هذا التحليل السابق يفسر علم انتشار معاداة السامية بين العرب عبر التاريخ (فالمجتمع العربى لا يعرف هذا الفصل القاطع بين الزراعة والتجارة وبين الطبقات المختلفة ، كما أن التجار لم يكونوا غرباء على الحضارة فكثير من المفكرين العرب والأئمة الإسلاميين كانوا ممن يعملون بالتجارة مما جعل اليهود مندمجين حضاريا كطبقة ، ولم يفرزوا وضعا مماثلا للأمة الطبقة أو الأقلية الدينية ذات الدور الاقتصادى المتميز . كما أن التراث العربى الإسلامى لا يضفى أى صفة محورية على اليهودى (أو أى أقلية دينية أخرى) إذ أن الرؤية الإسلامية للخلاص مرتبطة دائمة بالفرد والفعل الفردى .

وقد كانت معاداة السامية ومحاولة تفسيرها من أهم النقط التى واجهها اليهـــود فى العصر الحديث ، فقد آمن دعاة حركة الاستنارة اليهودية بأن معاداة السامية ظاهرة اجتماعية موقتة فى طريقها إلى الزوال التدريجى ، كنتيجة طبيعية لسيادة العقل وانتشار الإخاء والمساواة ، وإذا كان

المعادون للسامية يعتقدون أن اليهود أمة مستقلة فريدة فى نوعها ، فان دعاة الاستنارة واليهود الإصلاحيين كانوا يرون أن الجوهر الإنسانى لليهودى لايختلف عن جوهر أى إنسان ؛ ولهذا يجب أن يكون الرد اليهودى على معاداة السامية هو الاندماج . وقد طرح الثوريون من اليهود الثورة الاجتماعية كحل للمشكلة ، فقد كانوا يرون أن الاستغلال الطبقى هو الذى يؤدى إلى ظهور معاداة السامية ، ويتفق كلا الفريقين الليبرالى والثورى فى النظر إلى معاداة السامية باعتبارها ظاهرة طارئة يمكن أن تتلاشى وتذوب .

ولكن هذا التصور العلاقى لشخصية اليهود يتعارض وبشكل حاد مع تصور الصهاينة لليهودى، والذى يعتبره شخصية « فريدة » لا يمكن اندماجها مع بقية الأمم (بوبر) . فالإيمان باستحالة الاندماج هو من المبادىء الرئيسية للصهيونية كما يقول كلا تزكين ، وحتى لوأراد اليهود الاندماج ، فان هذا الأمر — حسب التصور الصهيونى — مستحيل ، لأن الأغيار يقفون له بالمرصاد . وسبب هذه الظاهرة هوأن معاداة السامية حسب التصور الصهيونى ظاهرة لها وجود ميتافيزيقى ثابت أزلى ، أى أنها نوع من أنواع الكرة « الافلاطونى » الذى أصبح مرضا مستعصيا على الفهم والحل يتخطى حدود الزمان والمكان . ولهذا السبب لا يميز الصهاينة بين معاداة السامية الدينية ومعاداة السامية العنصرية ، بل أنهم يصفون بمعاداة الفلسطينيين للنزور الصهيونى بأنه أيضاً معاداة للسامية ، ويقرأ الصهاينة « التاريخ اليهودى» على أنه تعبير عن الاضطهاد الذى يلحق باليهود عصراً بعد عصر ، ويخلصون من هذا إلى فشل الاندماج وحتمية الدولة الصهيونية متناسين أن معظم الصراعات السياسية الاقتصادية فى الماضى كانت تأخذ شكلا دينيا ، وان الاضطهاد لم يكن مقصورا على اليهود وحدهم ، فقد شاهدت العصور الوسطى وعصر النهضة مذابح دينية عديدة ذهب ضحيتها أبناء الأقليات المسيحية فى أوربا من البروتستانت فى فرنسا والكاثوليك فى بريطانيا) .

ولكن الصهيونية نفسها هى نتاج النظريات العرقية التى تستند اليها معاداة

السامية ، فالصهيونية ترى أن المحرك السياسي الأساسي للتاريخ هو العرق وليس الطبقات أو حتى الأفكار ، والصهاينة يقبلون التقسيم العنصري للأجناس الموجودة فى أوروبا على أنها آرية وسامية ، كما يقبلون مقولة التفوق الوراثى لبعض الأمم دون غيرها . وتظهر عنصرية الصهيونية فى نقدها للأقليات اليهودية خارج فلسطين ، فهى تنتقد « الشخصية اليهودية » مستخدمة مصطلحات اشتقتها من فولكلور معاداة السامية . فيهودى الدياسبورا ، حسب التصور الصهيونى ، شخص شاذ ، تاجر طفيلى هامشى لاجذور له ، مشوه الجسد والروح ، محدوب الظهر ، مترهل العضلات ، أنفه كبير مضحك. وشعره أسود مجعد ، شبح ميت يسير بين الأحياء هذا على عكس نموذج الصابرا الإسرائيلى المرتبط بالأرض ، فاره القوام ، قوى العضلات) . ويبدو أن نقد الصهاينة ليهود الدياسبورا ينطلق من الاتهامات العنصرية التى واجهوها هم أنفسهم كيهود فى حياتهم اليومية . ولعل هذه العنصرية المتأصلة هى التى تفسر سركره الاشكناز - الغربيين للسفارد - الشرقيين ، فالاشكناز الذين كانوا ينعتون بأنهم ساميون آسيويون هربوا لآسيا ليكونوا دعاة الحضارة الغربية الآرية فيها ، ولكن هجرة السفارد أفشلت مخططهم وحولت الدولة الارية إلى دولة آسيوية مرة أخرى مذكرة الاشكناز بذواتهم التى يهربون منها .

ولا يخجل الصهاينة من التعاون مع المعادين للسامية ، فهرتزل كان صديقا لهكلو الواعظ البروتستانتى الذى كان يكره اليهود ، كما أنه لجأ لفون بليفيه وزير خارجية روسيا المسئول عن حادثة كيشينيف ، وكان يعلم دائما ألم المتعاونين معه ستوجه اليهم تهمة معاداة السامية . وقد قام جو لدمان وجابوتنسكى بمقابلة موسولينى للتفاوض معه بشأن الدولة الصهيونية وقد عبر موسولينى عن فهمه وتعاطفه ، ولعله ليس من قبيل الصدفة أنه فى عام ١٩٤٧ كانت معظم البلدان التى وافقت على قرار تقسيم فلسطين هى أيضاً البلاد التى رفضت دخول اللاجئين اليهود . أما البلاد التى رفضت الموافقة على قرار التقسيم فهى البلاد التى رحبت باستقبال اللاجئين (وهذا نموذج يرجع تاريخه

إلى أيام بلفور الذى منع اليهود من الهجرة إلى انجلترا ، ولكنه كان متحمسا لهجرتهم إلى فلسطين) . بل ان بعض الصهاينة يرى فى معاداة السامية خيراً خالصا لأن معاداة السامية هى التى تضطر اليهود إلى الهجرة ، ولذلك كان يرى بن جوريون أنه لو ترك له الخيار لأرسل بعض الشبان اليهود متنكرين إلى بلاد الدياسبورا ، ليرسموا صلبانا معقوفة على معابد اليهود ، ليضطروهم للعودة إلى الأرض المقدسة .

الفصل الخامس

إبادة اليهـــــود

الإبادة هى محاولة القضاء على طائفة أو شعب قضاءا كاملا ، وقد جاءت فى العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم : « إن لم تسالمك مدينة بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، واما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلاتستبق منها نسمة ما « تثنية ٢٠-١٣-١٦ » أى فلتبدها عن بكرة أبيها . ولكن على الرغم من هذه النصيحة بالإبادة فانه من الثابت ان العبرانيين قد تزاوجوا مع الكنعانيين ولم يقوموا بإبادتهم أو بإبادة أى شعب آخر (فالعبرانيون كانوا شعبا صغيراً ضعيفاً يقيم فى ملتقى الامبراطوريات الثلاثة الرئيسية فى الشرق الأوسط القديم) . وإذا كانت الإبادة مسألة مشروعة فى الحضارات القديمة (كما نستشف من نصوص العهد القديم) فهى تعد جريمة دولية يعاقب عليها القانون الدولى العام فى العصر الحديث . ولكن مع هذا وقعت عدة حوادث ابادة من ضمنها الإبادة التركية الموجهة ضد الأرمن والتى دافعت عنها مجلات الحركة الصهيونية تحت قيادة هرتزل بسبب مطامعها فى فلسطين

ويطلق مصطلح « ابادة اليهود » على محاولة النازيين التخلص من الأقلية

اليهودية فى ألمانيا والأقليات اليهودية فى البلاد الأوروبية التى وقعت فى دائرة نفوذهم ؛ وقد أطلق فى أوروبا على الإبادة النازية اصطلاح « الهولوكوست» وهى كلمة يونانية تعنى « القربان الكامل » وكانت تستخدم فى الأصل كاصطلاح دينى يشير إلى القربان الذى يضحى به إلى الخالق ويشوى أو على الأصح يحرق كاملا غير منقوص على المذبح (إلا من جلده) على ألا يترك أى جزء منه للإنسان الذى قدم الضحية أو حتى للكهنة (الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب) . ولذلك يعد الهولوكوست من أكثر الطقوس الدينية قداسة ، وكان الهولوكوست يقدم تكفيراً عن جريمة الكبرياء ، كما أن التضحية على طريقة الهولوكوست هى الطريقة الوحيدة المتاحة للأغيار ، ولا يوجد مرجع صهيونى واحد يفسر سر اختيار هذا المصطلح واطلاقه على الجريمة النازية ولكن يمكننا القول أن المقصود من اختيار المصطلح هو تشبيه الشعب اليهودى بالقربان المحروق أو المشوى وأنه حرق لأنه أكثر الشعوب قداسة ، كما أن النازيين ، باعتبار أنهم من الأغيار ، يحق لهم القيام بهذا الطقس .

وتنقسم فترة الاضطهاد النازى لليهود إلى مرحلتين : الأولى من عام ٩٣٣ حتى عام ١٩٣٩ وتتميز هذه المرحلة بمحاولة السياسة النازية كشف ما أسمته بحقيقة « الشخصية اليهودية » فشنت الحملات المعادية للسامية على اليهود لإثارة مشاعر الكره والاحتقار ضدهم ، وقد أصدر النازيون قوانين نورمبرج فى ٢٥ سبتمبر ١٩٣٥ للحفاظ على نقاء الألمان العرقى ، كما صدر فى نفس العام قانون المواطنة النازى الذى نص على أن اليهود ليسوا مواطنين فى الرايخ ، وأصدر النازيون قانونا فى ١٩٣٨ يحتم على اليهود أن يتسموا بأسماء عبرية ، كما حاولوا النازيون فى هذه المرحلة التخلص من اليهود « بطريقة قانونية » عن طريق تهجيرهم هجرة شرعية إلى أى مكان بما فى ذلك فلسطين . وقد تعاونت الحكومة النازية مع الصهاينة فى هذا المضمار بتوقيع معاهدة الهعفراء أما المرحلة الثانية فتبدأ من عام ١٩٣٩ حتى نهاية الحكم النازى ، وهى مرحلة الإبادة

الجماعية لليهود ، وقد بلغت ذروتها فيما بين عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٤ فقضى على اعداد كبيرة من اليهود رميا بالرصاص وحرقا فى الأفران ، تحت شعار «الحل النهائى» إذ رأى هتلر أن الإبادة هى الحل الوحيد المتاح للمسألة اليهودية . وقد تمت ابادة اليهود وغيرهم من الأقليات والأفراد فى معسكرات الاعتقال والإبادة التى بلغ عددها ألف ، من أشهرها معسكر داخاو واشوتيز وتريلنكا ومايدانيك ، وبرجن ايسلن .

ولايعرف عدد الضحايا على وجه الدقة ، فهناك من يرى أنه بلغ ستة ملايين ، وآخرون يرون أنه لايزيد عن نصف مليون ، وتعود صعوبة تحديد العدد إلى غموض الاحصائيات الصهيونية وفوضاها ، فنرى مرجعا يحدد عدد اليهود عشية الحرب العالمية الثانية بأقل من أربعة عشر مليونا (نورمان بنويتش) ومرجعا آخر يقرر أنهم كانوا أكثر من سبعة عشر مليونا (موسوعة سيسل روث) . وقد ورد فى الكتاب السنوى ورلدالمانك ، لعام ١٩٣٩ أن عـــدد يهود العالم ١٥,٦ مليون نسمة . ومما يزيد الأمور تعقيدا ان الاحصاءات الخاصة بعدد اليهود بعد الحرب العالمية مباشرة هى الأخرى محل نقاش ، فقد ورد فى النيويورك تايمز أن عدد اليهود كان يتراوح بين ١٥,٧ ، ١٨,٦ عام ١٩٤٨ ، فاذا كان العدد هو ١٥ مليون قبل الحرب و١٨,٦ بعدها ، فكيف يمكن أن يكون عدد ضحايا النازية ٦ ملايين ، وخصوصا إذا علمنا أن نسبة توالد اليهود من أقل النسب فى العالم ؟ كما يجب ألا نهمل نسبة اليهود التى تختفى من خلال الزواج المختلط والاندماج ، ولكن ضخامة عدد الضحايا أو صغره ، لايقلل بأية حال من شأن الجريمة النازية ، ومع هذا تضخم الصهيونية أعداد الضحايا لتتاجر بالمأساة .

وتثير الإبادة النازية لليهود قضايا عدة من أهمها مسئولية الموظفين المنفذين (مثل ايخمان) لسياسة حكومتهم — هل هم مجرد موظفين يؤدون واجبهم فى أمانة وإخلاص ، أم أنهم يتحملون مسئولية خلقية فردية عن أفعالهم ؟ وقد حسمت المسألة باقامة محاكمات نورمبرج للقادة العسكريين النازيين وغيرهم

وكذلك بمحاكمة الخان نفسه . ولايزال حتى الآن الدور الذى لعبته الكنيسة غير معروف ، ففريق يرى أن الكنيسة بذلت كل مافى وسعها لتحمى اليهود دون أن تواجه النظام النازى مباشرة (باعتبار أن هذا أمر لاقبل لها به) ، وفريق آخر يرى أنها لم تقم بالجهد المطلوب . وبنفس القضية تثار بخصوص المواطنين الألمان العاديين الذين رأوا اخوانهم من اليهود يساقون إلى معسكرات الاعتقال ، ففى النمسا مثلا كانت هذه المسألة تقابل بالترحاب ، أما فى بلغاريا فقد قام الشعب بحماية اليهود ولم تمس الأقلية اليهودية (ومما يجدر ذكره أن حكومة فيشى الموالية للنازى حاولت ترحيل يهود . مراكش ولكن السلطان محمد الخامس رفض وقدم لهم الحماية ، كما أن الجامعة العربيــة فى إحدى قراراتها استنكرت الإبادة النازية وطالبت بمد اليهود بالعون والحماية) .

ومن أهم القضايا الأخرى التى تثيرها الإبادة سلوك الضحايا أنفسهم ، فمع الافتراض بأن عدد الضحايا يبلغ ثلاثة ملايين وحسب (وهو نصف عدد الضحايا حسب التقدير الصهيونى) ، فانه مما لاشك فيه أن عملية نقلهم من طول أوروبا وعرضها ثم فرزهم وابادتهم عملية صعبة ومعقدة للغاية وتستغرق جهداً كبيراً ووقتا طويلا ، خاصة وان الدولة النازية كانت فى حالة حرب (بل وفى أواخر سنوات الحرب) . ويفسر نجاح النازيين فى هذه المهمة الدموية بأنه كان نتيجة استسلام الضحايا أنفسهم الذين كانوا غير متفهمين لما يدور حولهم . ويجب أن نتذكر أن معظم جماهير شرق أوروبا اليهودية كانت متخلفة حضاريا وقدرية وغيبية لأقصى درجة واقعة تحت تأثير العقلية الجيتوية والأفكار الحسيدية ، وغير قادرة على استيعاب أى موقف مركب ، ولذلك فانها لم تقاوم ، بل تقدمت إلى غرف الغاز دون ضوضاء (ويقول البعض أنه لو قاوم الضحايا لخلقوا مشكلا لاحد لها للدولة النازية مما كان سيضطرها للإقلاع عن جريمتها البشعة أو على الأقل لتقليل حجم الجريمة) .

وأثناء محاكمة الخان ، التى كان الغرض منها تعبئة جيل الصابرا وتعميق

إحساسهم بالمصير « المشترك » اليهودى ، فوجىء الحرس القديم الحاكم بأن الشباب الإسرائيلى الذى ربى على القيم العسكرية قد أحس بالاندهاش والاشمئزاز من سلوك الضحايا المستسلم .

ولكن من المشاكل الأساسية التى تثيرها الإبادة هى الدور الذى لعبه بعض الصهاينة والحركة الصهيونية ككل ، فالعلاقة بين الصهاينة والنازية كانت تتسم بقدر كبير من التفاهم الذى أخذ شكل تعاون بين الطرفين ، ولعله مما يجدر ذكره أن العدو الرسمى للدولة النازية لم يكن الصهاينة وإنما جماعة يهودية يدل اسمها على اتجاهها الإصلاحى (الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من اتباع العقيدة اليهودية) . وكان الهدف الأساسى لهذه الجماعة هو محاربة معاداة السامية وبالتالى الدولة النازية ، أما الصهاينة فلم يكن هدفهم محاربة معاداة السامية من قريب أو بعيد ، وإنما كان الهدف الصهيونى هو الاستفادة من ظهور النازية لتحقيق مكاسب اقتصادية وترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود ولتحقيق المثل « القومية » . وقد ترجم التعاون بين الطرفين نفسه إلى ما يعرف باسم اتفاقية الهعفراة ، عقدت هذه الاتفاقية بين النازيين والمستوطنين الصهاينة فى فلسطين وبمقتضاها سمح النازيون لليهود بالهجرة ووافقوا على الإفراج عن أملاكهم لشراء بضائع فى ألمانيا مقابل كسر الصهيونية للحصار الاقتصادى الذى فرضه اليهود على البضائع الألمانية . وقد احتج بعض المندوبين فى المؤتمر الصهيونى التاسع عشر (١٩٣٥) على هذا التعامل بين الطرفين ولكنه لم يتخذ أى قرار فى هذا الشأن . وقد منحت ألمانيا للهعفراة احتكار البضائع الألمانية المصدرة إلى فلسطين وكان من نتائج هذه الاتفاقية استيراد خبرة الفنيين اليهود الألمان والآلات الألمانية التى كانت تحتاجها المستوطنات الصهيونية ، كما زادت الصادرات الألمانية الى فلسطين الى ثلاثة أضعاف من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٧ (من ١١ مليون مارك الى ٣٢ مليون مارك) . ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية كان يتبع الهعفراة ١٢ ألف حساب مصرفى وكانت قد تعاملت مع ١٦٠ بنك ، وقامت بنصف مليون عملية ، وبلغ

مجموع ما حولته الهعفرا ما يعادل ١٤٠ مليون مارك ، وقد انعش هذا اقتصاديات المستوطن الصهيونى فشاهد فترة رخاء ويقال أن هذه الفترة هى التى تدعم فيها الأساس الاقتصادى للبشوف الاستيطانى وهى الفترة التى أدت إلى إفساد البناء الاقتصادى للمجتمع الفلسطينى . وليس من قبيل الصدفة أن ثورة ١٩٣٩ الفلسطينية جاءت فى أعقاب تنفيذ اتفاقية الهعفرا . وقد كان لتنفيذ اتفاقية الهعفرا . انعكاسات طيبة على الاقتصاد النازى أيضاً خاصة وانها نجحت فى كسر الحصار اليهودى على السلع النازية .

ولكن الأهم من هذا هو مجال الهجرة الصهيونية ، فتهجير اليهود هى الأرضية المشتركة الإيديولوجية بين الصهاينة والنازيين ، فكانت وزارة الاقتصاد الألمانى تدعم الهجرة ، وقد ساهم الجستابو وفرق الأس . أس فى عمليات الهجرة الشرعية حينما حددت سلطات الانتداب عدد اليهود المسموح لهم بالهجرة . وكان تهجير اليهود يتم بالطريقة التالية : تودع أموال المواطنين اليهود الراغبين فى الهجرة فى أحد البنوك كما بينا من قبل ، ثم تحصل المنظمة الصهيونية - الوكالة اليهودية على ما يساوى هذه الأموال من بضائع وتقوم المنظمة بدفع مبلغ من المال للمهاجر اليهودى مما يجعل من السهل تصنيفه على أنه « رأسمالى » وبذا يمكن دخوله فلسطين تحت نسبة الرأسماليين ، لأن النسب الأخرى كانت لاتسمح ، وقد قام المستوطنون الصهاينة بدعوة ايخمان لزيارة مزارع الكيبوتس فى فلسطين محاولين بذلك كسبه لصفهم ، وبالفعل وصل إلى حيفا ولكن السلطات الإنجليزية رحلته على الفور . وقد ساعد ايخمان على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود ، كما تعاون بعض الزعماء الصهاينة مع النازيين بشكل مباشر فى تخدير الجماهير اليهودية أثناء نقلها المعسكرات الاعتقال والإبادة نظير السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود إلى فلسطين ، وقد هاجر حوالى ٦٠ ألف يهودى بمقتضى معاهدة الهعفراة بين عامى ١٩٣٣ — ١٩٣٩ .

وإلى جانب التعاون التنظيمى المعلن توجد حالات من التعاون الفردى غير المعلن مثل حالة كاستنر ونوسيج . ورودولف كاستنر (١٩٠٦—١٩٥٧)

هو أحد زعماء الحركة الصهيونية فى رومانيا والمجر وشخصية قيادية فى حزب الماباى ، ترأس عديدا من المنظمات الشبابية الصهيونية ورأس تحرير بعض المجلات الصهيونية وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية فى المجر وأصبح مسئولا عن انقاذ المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وقام أيضاً بالاتصال بالمخابرات المجرية والمخابرات النازية (التى كان لها عملاء يعملون داخل المجر حتى قبل احتلالها من قبل القوات الألمانية) لتحقيق أهدافه . وقد زادت «محاولات الإنقاذ» هذه بعد الاحتلال النازى فى اطار تبادل المهاجرين اليهود نظير البضائع التى ستساعد النازيين فى جهودهم الحربية والتى ستسلم لهم فى البلاد المحايدة .

وقد زاد التعاون بين كاستنر والنازيين حتى وصل إلى درجة العلاقة المباشرة بين ايخمان وبينه ، وقد زار كاستنر ألمانيا علة مرات و«نجحت» جهوده حينما سمح النازيون عام ١٩١٤ بارسال ٣١٨ يهودى ثم١٣٨٦ يهودى من احدى معسكرات الاعتقال إلى فلسطين نظير أن يسود الهدوء بين اليهود المرحلين والمعسكرات الإبادة حيث تنتظرهم أفران الغاز ، ويبدو أن كاستنر قد نفذ جانبه من الصفقة .وقد استوطن كاستنر فى إسرائيل وأصبح محرراً لإحدى مجلات الماباى الناطقة باللغة المجرية ، ولكنه فى عام ١٩٥٣ وزع أحد المواطنين الإسرائيليين منشوراً بين فيه مدى تعاون كاستنر مع النازيين بل ودفاعه عن أحد الضباط النازيين أثناء محاكمة نورمبرج مما تسبب فى الإفراج عنه (أى أن حماس كاستنر للنازيين استمر حتى بعد سقوط النظام النازى) . وقد قام الحزب الحاكم فى إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر ولكن حكمت إحدى المحاكم الإسرائيلية بأن معظم ما جاء فى المنشور يتطابق مع الواقع . وبعد اشكالات قضائية عديدة حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق أحدهم الرصاص على كاستنر بينما كان يسير فى الشارع .

أما الفريد نوسيج (١٨٦٤–١٩٤٣) فقد كان من أوائل الدعاة للصهيونية ،

ففى كتاب له عنوانه محاولة لحل المسألة اليهودية (١٨٨٧) طالب بانشاء دولة يهودية كحل وحيد لهذه المسألة . وقد حضر المؤتمر الصهيونى الأول ولكنه اختلف مع هرتزل على مواضيع تفصيلية . وقد قام نوسيج باقامة عدة تماثيل ذات طابع صهيونى واضح له . وكان نوسيج متشربا بالثقافة الألمانية متحمسا لها كما هو الحال مع معظم الزعماء الصهاينة ، وقد عمل جاسوسا للألمان أثناء الحرب العالمية الثانية ، ووضع خطة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء . وحينما وصلت القوات النازية إلى بولندا ، قام نوسيج بتقديم خطط للهجرة اليهودية وعينه النازيون عضوا فى مكتب لقسم الشئون اليهودية ورئيس لقسم الفنون (اليهودية) التابع له . وقد اكتشفت المقاومة اليهودية تعاونه مع النازى وأنه عضو فى الجستابو فأطلق عليه النار عام ١٩٤٣ وختمت حياته .

إلى جانب هذا التعاون الواضح بين النازية والصهيونية لا يمكن للدارس إلا أن يلاحظ التشابه البنيوى والفلسفى بينهما وكما أوضحنا فى كتاب نهاية التاريخ . وهذا التشابه ليس أمراً عفويا من قبيل المصادفة وإنما هو نتيجة منطقية لعوامل تاريخية عديدة ، فمن الملاحظ مثلا أن معظم المفكرين الصهاينة واليهود فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانوا يرون أن الثقافة الأوروبية تعنى الثقافة الألمانية ، كما أنه من المعروف أن اللغة اليديشية هى أساساً فرعا من الألمانية ، كما كان اليهود معجبين للغاية بالحضارة الروسية النوردية أو الآرية ولايكنون أى احترام للحضارة السلافية . وقد زاد من حدة هذه النزعة ظهور الصهيونية ، ولعله ليس من قبيل الصدفة أن هرتزل بذل قصارى جهده كى يحصل على تأييد قيصر ألمانيا لمشاريعه الاستيطانية فى فلسطين . وتزخر مذكراته بالإعجاب الشديد بالعقلية الروسية العسكرية .

وقد تركت الإبادة جرحا غائراً فى الوجدان اليهودى ، حتى أن التصورات اليهودية للخالق قد تعدلت بعض الشيء — إذ تساءل الكثير من اليهود عن مدى تدخل الخالق فى التاريخ ومدى مسئوليته والتصور اليهودى القديم يرى أن الله يتدخل فى التاريخ لصالح شعبه المختار . وظهر فى الولايات

المتحدة ما يسمى «لاهوت موت الله» أى «دين دون آله» . ولكن الطريف أن هذا اللاهوت النيتشوى يصدر عن نفس الفكر الذى تستند اليه أفران الغاز (عالم داروينى البقاء فيه للأنوى) ، وقد أدت الإبادة إلى شعور الأوروبيين باحساس يطلق عليه «أزمة الضمير الأوربى» وأصبحت أوروبا جميعها ترزح تحت وطأة الإحساس بالذنب والرغبة فى التفكير . ولكن أوروبا وان كانت حقا مصابة بوخز الضمير فانها تحاول معالجة النازية بالصهيونية وقانون نورمبرج بفكرة الدولة الصهيونية ذات الأغلبية اليهودية المطلقة ، وقانون المواطنة النازى بقانون العودة الإسرائيلى . لكن معالجة النازية بالصهيونية دو نوع من اللاتاريخية والتداخل فى المستويات : فالجريمة النازية ضد اليهود لم تكن جريمة فردية وانما كانت ظاهرة اجتماعية حدثت فى أوروبا وليس فى العالم العربى وقام بها أوروبيون ، وتصور أن حل المسألة يتأتى عن طريق تصديرها إلى مكان آخر هو تجاهل لكل قوانين الواقع وتهرب من «وخز الضمير» ولاينتج عنه سوى العنف الذى يراه الشرق الأوسط الآن .

ولابد أن نفهم الإبادة فى سياقها التاريخى وفى حجمها الطبيعى على أنها ظاهرة غير متكررة فى حياة الأقليات اليهودية فى العالم (والاضطهاد والمذابح مختلفان عن الإبادة) . كما أنها لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، فعدد الضحايا النازى من جميع الشعوب الأوروبية يفوق مرات عدد «ضحايا اليهود» ، ويجب أن نرى الإبادة على أنها نتاج أزمة الرأسمالية العالمية فى الثلاثينات فى العالم وأزمة الرأسمالية الألمانية بالذات التى لم تكن عندها مستعمرات تصدر لها مشاكلها واختارت أوروبا لتكون «مجالها الحيوى» فقتلت اليهود والغجر وملايين المواطنين السوفييت فى الوقت الذى كانت فيه القوات الإيطالية تبيد الأحباش وفى الوقت الذى كانت فيه القوات الاستعمارية تجثم على صدر آسيا وأفريقيا .

هذا وقد حولت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية الخوف من الإبادة ليصبر أحد أسس الاستراتيجية الصهيونية . ويقال أن الإحساس بخطر

« الإبادة » إحساس حقيقى فى المجتمع الإسرائيلى ، ويفسر هذا على أنه نتيجة للجريمة النازية . ولكن من المحتمل أن أساس هذا الإحساس هو طبيعة المجتمع الاستيطانى الصهيونى الذى لم يضرب أى جذور فى المنطقة والذى لم يحقق أى تماسك اجتماعى أو عرقى من الداخل ، وبالتالى فهو مهدد فى أى لحظة بالزوال والتآكل ، أى أن خوف الإسرائيليين من الإبادة ليس نتيجة للمذبحة النازية بقدر ماهو انعكاس طبيعى لكيان استيطانى لاجذور له واثارة القيادة الصهيونية الإسرائيلية لمسألة خطر الإبادة يسهم إلى حدما فى إضعاف الصراع الداخلى وعدم تحول التناقضات الطبقية إلى مصادمات واسعة . وتقوم الحركة الصهيونية بالتلويح بخطر الإبادة للأقليات اليهودية فى العالم حتى تحثها على الهجرة الفورية وتضطرها اليها ولكن يهود العالم مع هذا يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع إذ أنه من الصعب أن يتصرف المرء على أساس حادثة استثنائية .

ومما هو جدير بالذكر أن الدولة الصهيونية قد حصلت على تعويضات ضخمة من ألمانيا الغربية الأمر الذى انعش الاقتصاد الإسرائيلى ، ومكن إسرائيل من شراء مزيد من الأسلحة وامتلاك مزيد من الأراضى .

القسم الثانى

يهود العالم والادعاء القومى

تمهيد

يستند البرنامج الصهيونى إلى افتراض وجود وحدة تنتظم كل يهود العالم فى كل زمان ومكان ونتيجة لذلك شاع عدد كبير من المصطلحات "الصهيونية" التى تستند إلى هذا الافتراض ، ولهذا فاننا رغم معارضتنا للصهيونية – تجدنا كثيراً ما نتحدث عن وعى أو دون وعى عن اليهود كما لوكانوا أعضاءاً فى بناء حضارى - عرقى واحد متماسك . وأحياناً ما نتحدث أيضاً عن مقولات لانؤمن بوجودها مثل « الشعب اليهودى » . فاستخدام المصطلح مثل « الشعب اليهودى » يفترض الإيمان بوجود « قومية يهودية » – وهذا هو الأساس السياسى والفلسفى للبرنامج الصهيونى .

ولكن النظرة الفاحصة – بل أحيانا العابرة – لواقع الطوائف والأقليات اليهودية فى العالم لاتدع مجالا للشك فى أن أعضاء هذه الأقليات لاينتمون إلى قومية واحدة ، وإنما هم أعضاء فى قوميات شتى غير متجانسة وينتمون لبنيات تاريخية عدة ولذا يكون الحديث عن « قومية يهودية » هو حديث ليس له سند فى الواقع .

ولدراسة هذا الجانب من البرنامج الصهيونى سنبدأ هذا البحث – فى الجزء الأول منه – بدراسة واقع الأقليات اليهودية فى العالم من ناحية تنوعهم العرقى والحضارى وسماتهم وتعدادهم وتوزيعهم فى العالم .

أما فى الجزء الثانى من هذه الدراسة نستعرض لمقولة « القومية اليهودية » فى جذورها التاريخية ومبرراتها كما تزعمها الصهيونية ، ثم انعكاساتها على التجمع الاستيطانى الإسرائيلى فى فلسطين .

الفصل السادس

واقع الأقليات اليهودية فى العالم

أولا : الأقليات والطوائف اليهودية : تنوعها العرقى والدينى تبين الدراسة الموضوعية أن مواطن الاختلاف بين الأقليات والطوائف اليهودية عديدة ومركبة ، فهى تختلف الواحدة عن الأخرى لاعلى مستوى عرقى وقومى وحسب ، وإنما على مستوى دينى أيضاً ، إذ أن الانتماء الدينى اليهودى ذاته ليس انتماءا واحدا موحدا . وحتى نبين مدى هذا الاختلاف ومجاله حتى تتحقق مما يسمى بوحدة اليهود وتراثهن المشترك حاولنا أن نحصر « أنواع » اليهود فى العالم فى الصفحات القليلة القادمة . ولعل أهم هذه الأقليات اليهودية على الإطلاق هى :

(أ) الاشكناز :

يشكل الاشكناز غالبية يهود العالم (بين ٨٠ و٨٥٪) واشكناز هو أحد أحفاد نوح ، وكانت الكلمة تستخدم فى بادىء الأمر للإشارة للشعب والبلد الموجودين على حدود أرمينيا فى أعالى الفرات ولكنها فى العصور الوسطى أصبحت تشير إلى الأراضى الأوربية التى يسكنها الجنس الجرمانى ثم أصبحت تشير إلى ألمانيا . ولكن لم يستقر الاشكناز فى ألمانيا وحسب ، فبعضهم استوطن فى شمال فرنسا وشرقها والنمسا وروسيا كما هاجر بعضهم إلى شرق أوربا فى القرنين الخامس والسادس عشر ومعظم اليهود الاشكناز لا يتحدثون العبرية وإنما يتحدثون اللغة اليديشية (ألمانية العصور الوسطى مختلطة بالإسلافية وتكتب بالحروف العبرية) ، كما أن صيغ الدين اليهودى التى يعرفونها تختلف عن الصيغ المألوفة بين السفارد نظراً لاختلاف المؤثرات الحضارية والاجتماعية التى أثرت على الفريقين . لكن هذا نجد أن مصطلح « اشكناز » ليس له دلالة جغرافية وحسب بل له دلالة دينية وحضارية أيضاً ، وقد كان

أعضاء اليشوف القديم فى فلسطين ، وهى مؤسسة دينية محضة ، ينقسمون لاشكناز وسفارد . وقد اتسعت دلالة المصطلح بحيث أصبحت تتضمن كل يهود الغرب بما فى ذلك يهود الولايات المتحدة وباستثناء يهود اسبانيا وبعض يهود هولندا وانجلترا وتركز الحركة الصهيونية كل جهودها على تهجير اليهود الاشكناز حتى أننا يمكننا القول أن الهجرة الصهيونية هى أساسا هجرة اشكنازية . وقد بلغ عدد يهود فلسطين من الاشكناز فى أواخر الثلاثينيات حوالى ٧٧٪ من مجموع المستوطنين اليهود ، ولايزال يهود الاشكناز يمثلون النخبة القائدة للتجمع الإسرائيلى فكريا وسياسيا ، كما لاتزال معرفة اليديشية هو إحدى علامات التمايز الاجتماعى .

ولكن مع هذا أخذ عدد اليهود السفارد والشرقيين فى التعاظم حتى حتى أصبحوا يشكلون الأغلبية تقريبا فى إسرائيل .

فمن هم السفارد والشرقيون ؟

(ب) السفارد

لايمثل السفارد سوى أقلية من يهود العالم (بين ١٢ ، ١٥٪) وكلمة سفارد كانت تشير إلى مكان شمال فلسطين نفى اليه اليهود بعد السبى البابلى . ولكن معنى الكلمة تغير بحيث أصبحت تدل على الفكر اليهودى ابان العصور الوسطى على شبه جزيرة أيبريا التى تضم أسبانيا والبرتغال . وقد أطلق المصطلح تاريخيا على نسل أولئك اليهود الذين عاشوا أصلا فى أسبانيا ، والبرتغال (فى مقابل الاشكناز الذين كانوا يعيشون فى ألمانيا وأوروبا) . وقد كان ليهود أسبانيا طريقتهم الخاصة فى الصلاة والطقوس الدينية التى تعد استمرارا للتقاليد الدينية اليهودية التى نشأت وتطورت فى بابل (اما الاشكناز فتعود عبادتهم أساسا لأصول يهودية فلسطينية) . لكل هذا اكتسب اصطلاح «سفارد» دلالة دينية إلى جانب دلالته العرقية الأصلية . وحينما طرد يهود الأندلس اتجهوا إلى تركيا واليونان وشمال أفريقيا واتبع معظم يهود المنطقة طريقتهم فى العبادة ، ولذا اتسع نطاق دلالة المصطلح وأصبح يطلق على كافة اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية فى العبادة سواء كان أصلهم

من أسبانيا أم لا . ويطلق المصطلح الآن على كافة اليهود الذين ليسوا من أصل اشكنازى أوروبى فى التجمع الإسرائيلى (ولكن مما يثير بعض المشاكل فى التصنيف ان الحسديين وهم من الاشكناز قد اقتبسوا كثيراً من التقاليد ، والطقوس السفاردية) . والعبرية التى يتعبد بها السفارد مختلفة عن عبرية الاشكناز ، وهذا يعود إلى أن يهود البلاد العربية منذ أيام الأندلس لايتحدثون إلا بالعربية ، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة الدينية المتخصصة ولكن هذا لايعنى أن هناك وحدة لغوية بين السفارد فبعضهم مثل المارانوس يتحدثون اللادنيو (وطانه أسبانية) ، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانية والتركية .

(حـ) اليهود الشرقيون

تعبير يطلق على نسل أولئك اليهود الذين اتجهوا ، عندما غادروا فلسطين قديماً ، إلى العراق وايران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية ومصر وبلدان شمال أفريقيا . وقد اتسع نطاق دلالة كلمة «سفارد» بحيث أصبحت تضم اليهود الشرقيين أيضاً .

ويمكننا القول ان هذه هى الأقليات اليهودية الأساسية فى العالم ولكن توجد أقليات أخرى متناثرة فى العالم تدحض بما لايقبل الشك مقولة الشعب الواحد ، ومن أهم هذه الأقليات بنى اسرائيل والفالاشاه .

(د) بنى إسرائيل

مجموعة من يهود الهند القاطنين حول بومباى ، وهم لايعرفون التلمود ويشتغلون أساسا بالتجارة وببعض الحرف اليدوية ، ومن مميزاتهم الجسدية أن لونهم أميل للبياض . هاجر بضعة آلاف منهم لإسرائيل ولكنهم عانوا من التفرقة العنصرية وفشلوا فى العثور على وظائف مما اضطرهم للاضراب والمطالبة بالعودة إلى الهند ، وقد عاد بعضهم بالفعل إلى الهند — ولكن القرية الذى استوطن نهائيا فى اسرائيل وطن فى موشاف (مستوطن تعاونى) جديد مع بعض يهود العراق .

(هـ) الفالاشاه

الأقلية اليهودية فى الحبشة وكلمة « فالاشاه » مشتقة من كلمة عبرية معناها « مهاجر » أو يهيم على وجهه » ، ويبلغ عدد أفراد هذه الطائفة اليهودية حوالى ١٥ ألف واصل الفالاشاه غير معروف على وجه التحديد ، ولعلهم قد اعتنقوا اليهودية على يد بعض التجار اليمنيين اليهود قبل دخول المسيحية الحبشة ، أولعلهم من سلالة جالية تجارية يهودية استوطنت هناك وتغيرت معالمها البدنية عن طريق التزاوج . والفالاشاه برهان حى على أن خرافة النقاء العنصرى التى تروج لها الصهيونية لاأساس لها من الصحة ، فهم من الناحية الجثمانية أفريقيون يشبهون غيرهم من الأحباش المسيحيين والمسلمين يتحدث الفالاشاه باللغات الافريقية السائدة حولهم لأن معرفتهم بالعبرية قاصرة على عدة كلمات ، فالعهد القديم الذى يعرفونه مكتوب بلغة حبشية قديمة / ولايعرف الفالاشاه شيئا عن الكتب اليهودية الدينية الأخرى مثل التلمود . وعلى الرغم من أن الفالاشاه يقيمون السبت ويحتفلون بأكثر الأعياد ويحافظون على الشرائع الخاصة بالختان والزواج إلا أن يهوديتهم تختلف بشكل جوهرى عن اليهودية الحاخامية المعروفة لدى اليهود الاشكناز والسفارد . إلى جانب بنى إسرائيل والفالاشاه توجد أقليات يهودية صغيرة لايمكن تصنيفها إلا على أساس دينى ، وان كان التصنيف الدينى يكتسب محتوى عرقيا بل ولغويا نظراً لتركيز أعضاء كل فريق فى موطن جغرافى واحد ولاشتراكهم فى تراث غير يهودى واحد ، هذه الأقليات هى اليهود المتخفون (المارانوس والدونمه) والقراؤون والسامريون .

(و) اليهود المتخفون

اصطلاح يستخدم للإشارة لليهود الذين يضطرون لاعتناق دين غير دينهم فيقيمون شعائر دينهم فى الخفاء ويبقون فى الوقت ذاته واجهة غير يهودية (مسيحية أواسلامية) وتوجد فرق عديدة من اليهود المتخفين ولكن أهمها هى :

(١) المارانوس

تعبير أطلق على أولئك اليهود الأسبان الذين تراجعوا — ظاهريا — عن عقيدتهم اليهودية فى القرن الرابع عشر حتى يتمكنوا من البقاء فى أسبانيا بعد أن انتهى الحكم الإسلامى . وقد أطلق عليهم أيضاً تعبير كريستاوس نوفوس » أو « المسيحيون الجدد » . وكلمة « مارانو » ليست معروفة الأصل على وجه التحديد ، وان كان يقال أنها تعود لكلمة — مارانوا (والتى تعنى خنزير .

وقد مارس هؤلاء المارانوس كافة الطقوس التى تقتضيها الديانة المسيحية فى العلن ولكنهم ظلوا فى الوقت ذاته يمارسون سرا كافة الطقوس التى تقتضيها الديانة اليهودية .

وقد حار المفسرون فى سر اصرار بقاء المارنوس فى أسبانيا ، بينما كان أمامهم حق الهجرة لبلد آخر ، ولكن يبدو أن العنصر الاقتصادى هو الباعث الوحيد على بقائهم ولذلك حينما كانت تسنح أمامهم فرصة للكسب فى أى بلد آخر كانوا يهاجرون اليه ، وفى كثير من الأحيان كانوا يهاجرون إلى بلاد كاثوليكية خاضعة لحكم الاسبان . وقد هاجر كثير من المارانوس إلى بولندا وبعض دول أوروبا وساهموا فى إنشاء البنوك وكان لهم شهرة فى التعامل فى بورص الأوراق المالية ، وقد لعبوا دورا هاما فى تأسيس كثير من الشركات الاستعمارية التابعة لهولندا ، كما ساهموا فى تأسيس بعض الشركات البرتغالية المنافسة ويقول أحد علماء الاجتماع الألمان أن المارانوس ساهموا مساهمة فعالة فى قيام النظام الرأسمالى الحديث .

وكان بعض المارانوس ما أن يخرج من أسبانيا حتى يظهر تمسكه الشديد باليهودية ، ولكن فريق آخر استمر فى ممارسة طقوسه سراً وفى التزاوج بين أفراد الجماعة حتى بعد أن انتهت الحاجة لذلك ، ولايزال توجد طوائف مارانوس فى أسبانيا والبرتغال والولايات المتحدة » .

(٢) الدونمة

كلمة تركية تعنى « المرتدون » ، وهى طائفة يهودية تركية استقرت فى سالونيكا وأشهرت اسلامها تشبها بمبتاى تسفى الباشيح الدجال الذى ظهرت فى أوروبا فى القرن السابع عشر ، فقد اعتقد كثيرون من اتباعه المتعصبون له أن ارتداده عن دينه واعتناقه للإسلام إن هو إلا تلبية لأمر سرى من الرب وتنفيذاً للإرادة الإلهية ، فحذوا حذوه ولكنهم ظلوا متمسكين سراً بتقاليدهم اليهودية وبايمانهم الراسخ بأن شيتاى تسفى هو الماشيح المنتظر . وانقسمت الدولة إلى جماعتين رئيسيتين وكان لكل واحدة منهما اسما تركيا مسلما يستعمله علانية وآخر عبريا تعرف به بين أفرادها كما كانوا يحتفلون بجميع الأعياد اليهودية ويتبعون شعائرهم فيما عدا شعيرة الكف عن العمل حتى لايلفتوا النظر إلى حقيقتهم . وقد أضافوا إلى الأعياد عيداً آخر اعتبروه أقدس الأعياد على الإطلاق وهو عيد ميلاد شيتاى تسفى . وكانت صلواتهم وطقوسهم تكتب فى كتب صغيرة الحجم حتى يسهل عليهم اخفاؤها . وقد اتهمت هذه الجماعة بالانحلال الخلقى والانغماس فى الجنس وذلك بسبب ميلهم إلى تحليل الزوجات التى حرمتها الهالاخاه (الشريعة اليهودية) وبسبب الحفلات التى كانوا يقيمونها ويتبادلون خلالها الزوجات . وقد تفرق شمل هذه الطائفة على أثر اتفاقية تبادل السكان التى وقعتها تركيا واليونان بعد الحرب سنة ١٩٢٤ بسبب اضطرار أفرادها إلى ترك مقرهم فى سالونيكا والاستقرار فى جهات متفرقة بتركيا، وتم أخيراً إزاحة النقاب عن سر هذه الجماعة بعد أن نجحت طويلا فى إخفاء حقيقة أمرها عن المسلمين واليهود على السواء، فقد ظهرت وثائق ومخطوطات كشفت عن يهوديتهم المتأصلة وبعدهم التام عن الإسلام . ولكن مما يلفت النظر أنه بالرغم من هذه الوثائق التى تؤكد ارتباطهم الشديد باليهودية فقد فشلت جميع المحاولات التى بذلت لاقناعهم بالهجرة إلى اسرائيل ، ولم يكن بين المهاجرين الأتراك غير أفراد قليلة جدا من الدونمة .

(ز) القراؤون

طائفة يهودية أسسها عنان بن داوود فى العراق فى أواخر القرن الثامن ويتلخص مذهب القرائين فى جعلهم النص المقدس المكتوب أى التوراه المرجع الأول والأخير والمنبع لكل عقيدة أوقانون. وكانت التوراة تسمى قديما «بالمقرأ» أى «المقروء» ومن هنا جاءت تسميتهم بالقرائين.

هاجم القراؤون التلمود وهدموه وفندوا تقاليده الحاخامية كما هاجموا فكرة الشريعة الشفوية أى كتب التفسير اليهودية مثل التلمود التى ارتفعت منزلتها حتى أصبحت كأنها هى الأخرى كتب منزلة مثل التوراة. واشتد الصراع بينهم وبين الحاخاميين إلى حد إعلان كل طائفة تكفير الأخرى ونجاستها وحرمانها من رحمة الله. وكان أكثر القرائين يقيمون فى مصر والشام وتركيا والعراق وإيران وبعض أجزاء من روسيا وأوروبا.

وقد ابتعد القراؤون بالتدريج عن باقى اليهود منذ القرن الثالث عشر وأدى التزامهم المتزمت بالتفسير الحرفى للتوراه إلى الجمود والتخلف ولايزال يوجد بعض اليهود القرائين فى مصر وشرق أوروبا.

السامريون

اشتق اسمهم من السامرة عاصمة مملكة اسرائيل القديمة، وهم يمثلون أصغر طائفة دينية فى العالم فعددهم لايتجاوز ٢٤٠ شخص يعيش أغلبهم فى نابلس. والسامريون متصلون تاريخيا باليهود ولكن تفصل بينهم هوة عميقة من الخلافات الدينية فهم يؤمنون بأسفار موسى الخمسة يضاف إليها أحيانا سفر يوشع بن نون، ويرفضون الأنبياء اليهود والكتب السماوية الأخرى، ويعتبرونها من صنع البشر ولذلك يختلف كتابهم المقدس اختلافا واضحا عن التوراة الشائعة.

والسامريون بحكم دينهم ليسوا صهاينة فهم لايعترفون بقدسية جبل صهيون ولايؤمنون، بداود وسليمان. ومن هنا الجدل الشديد الذى أثير

حول تاريخهم وأصلهم بل أن بعض اليهود ينفى عن السامريين الانتساب إلى إسرائيل أو الإيمان باله إسرائيل .

إذا كانت الأربعة « أنواع » السابقة من اليهود طوائف دينية ذات طابع عرقى ، فالأنواع الثلاثة التى سنوردها هى أساسا طوائف دينية ليس لها محتوى عرقى :

اليهودية الإصلاحية

يمكن اعتبار مذهب اليهودية الإصلاحية ثمرة مباشرة لحركة الاستنارة اليهودية ، فقد حاول مؤسسوا هذا المذهب أن يصلوا إلى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر وتتخلص من إسار المطلقات اللاتاريخية التى كانت تدور فى فلكها هذه الديانة . ويمكننا القول أن أحد التيارات الأساسية فى الفكر الإصلاحى هو وضع المعتقدات الدينية اليهودية فى اطار تاريخى ومحاولة التمييز بين ماهو مطلق منها وماهو مرتبط بزمان ومكان ، ولذا عدل الإصلاحيون فكرة الوحى والنبوءة ونادوا بأن الوحى ليس خالصا صافيا بل يختلط بعناصر تاريخية زمنية وبذا يصبح اليهود ملزمين بمحاولة فهم وتفسير هذا الوحى من آونة لأخرى وأن ينفذوا منه ماهو ممكن فى لحظتهم التاريخية . وعلى هذا يصبح للقانون الإلهى السلطة والحق فقط طالما كانت أوضاع الحياة التى جاء لمعالجتها مستمرة ، وعندما تتغير الأوضاع يجب أن ينسخ القانون حتى وإن كان الله صاحبه ومشرعه . فالعهد القديم على سبيل المثال له جانبان واحد مقدس والأخرى زمنى ، وقد سقطت فاعلية الجزء الثانى بسقوط الهيكل وكذا أسقط معهما كل ماله علاقة بالهيكل أو الدولة وبقى الجزء المقدس أو المطلق وحده . واليهودية الحاخامية فى تصور الإصلاحيين لاتزال تدور فى إطار الطقوس المرتبطة بالدولة والهيكل والتى لم يعد لها أى فعالية أو شرعية .

وتطبيقا لرؤيتهم الفلسفية قام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات التى لها طابع

قومى يهودى وجعلوا لغــة الصلاة هى الألمانية لا العبرية وأدخلوا الموسيقى والأناشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسين فى الصلوات . وقد قام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم الهيكل وكانت تلك أول مرة يستخدم فيها هذا الاسم لإنه كان لايطلق إلا على « الهيكل » الموجود فى القدس، أى أن الإصلاحيين بتسميتهم معبدهم هذه التسمية الجديدة كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودى للوطن الذى يعيش فيه .

أما على مستوى المفاهيم الدينية فقد أعاد الإصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلى وأعادوا دراسة العهد القديم على أسس علمية ونادوا بأن الدين اليهودى أو العقيدة الموسوية ، وهى التسمية الأثيرة لديهم ، يستند إلى قيم أخلاقية تشابه قيم الأديان الأخرى كما ركز الإصلاحيون على الجوهر الأخلاق للتلمود مهملين التحريمات المختلفة التى ينص عليها القانون اليهودى سيما القوانين الخاصة بالطعام .

وعدل الإصلاحيون بعض الأفكار الرئيسية فى الديانة اليهودية كما أضفوا على فكرة العودة والماشيح طابعا إنسانيا إذ رفضوا فكرة العودة الشخصية للماشيح المخلص وأحلوا محلها فكره العصر الماشيحانى . ويكفر الأرثوذكس الإصلاحيين (والمحافظين) ولايعترفون بالزيجات التى يعقدها حاخام إصلاحى (أو محافظ) .

(ى) اليهودية الأرثوذكسية

تعــد اليهودية الأرثوذكسية رد فعل رجعى للتيارات الاستنارية والإصلاحية بين اليهود . ويؤمن الأرثوذكس أن التوراة هى كلام الله ، كتبها حرفا حرفا ، قيمها خالدة أزلية تنطبق على كل العصور ، ولولا التوراة لما تحقق وجود إسرائيل كشعب ، ولذلك يطالب الأرثوذكس أتباعهم بالإيمان الكامل بالشريعة المدونة والشفهية ، وبكل كتب اليهودية الحاخامية مثل التلمود والشولحان عاروخ . وهم فى إيمانهم هذا لايقبلون أى تمييز

بين الشرائع الخاصة بالعقائد وتلك الخاصة بالطقوس فكلها ملزمة وبنفس الدرجة ، وقد نادى الأرثوذكس بعدم التغيير أو التبديل أو التطوير لأن عقل الإنسان ضعيف لا يمكنه أن يعلوا على ما أرسله الله، ولأن التطور سيودى حتما باليهودية . وقد وصل التزمت ببعض الأرثوذكس أنهم طالبوا بعدم تغيير حتى الطريقة التى يرتدى بها اليهود ملابسهم أو يقصوا بها شعرهم .

وتدافع اليهودية الأرثوذكسية عن كل المقولات اليهودية التقليدية والأساطير القديمة بكل بساطتها وجفافتها لحقائق التاريخ والواقع فالدين اليهودى حسب تصورهم ليس مجرد عقيدة يؤمن بها اليهودى كفرد ، بل هى نظام يفسر تاريخ اليهود ويغطى كل جوانب الحياة اليهودية . ويعتقد الأرثوذكس اعتقادا حرفيا فى صحة الأساطير اليهودية مثل الإيمان بالعودة الشخصية للماشيح وبالعودة لفلطسين وبأن اسرائيل هى الشعب المختار الذى يجب أن يعيش منعزلا عن الناس لتحقيق رسالته . وهم يستخدمون فى صلواتهم اللغة العبرية ولا يسمحون باختلاط الجنسين كما أنهم يعارضون أى نشاطات تبشيرية قد يقوم بها اليهود .

والأرثوذكس كمجموعة دينية يحاولون الانفصال عن بقية الفرق اليهودية الأخرى حتى يمكنهم الحفاظ على ما يتصورونه بأنه جوهر اليهودية الحقيقى دون أن تشوبه شوائب.

(ك) اليهودية المحافظة

نادى المحافظون بأن أى تغيير أو تطوير لليهودية لابد وأن يكون نابعا من أعماق الروح اليهودية لا من خارجها ، وعلى الرغم من أن المحافظين كانوا من المؤمنين بأن فكرة الشريعة الشفهية خرافة ابتدعها الحاخامات لكى يضفوا لونا من الحقانية على ما أقره الإجماع الشعبى ، وعلى الرغم من أنهم رأوا أيضاً أن التراث الدينى اليهودى ليس مرسلا من الله إلا أنهم لم يتخذوا موقفاً نقديا أو متحررا من التوراة أو التراث اليهودى لأن كليهما تعبير عن روح

الشعب اليهودى وعبقريته . ولذلك يؤمن المحافظون بالقانون اليهودى دائم التطور ، ولكن هذا التطور لابد وأن يكون متسقا مع منطق اليهودية نفسها وأن تظل الأشكال المختلفة المتغيرة تعبيراً عن عبقريتها . ويؤمن المحافظون بأن الأمل فى العودة فكرة أثيرة لدى اليهود لابد من المحافظة عليها وبأن هذا الأمل لايتنافى بأى حال مع الولاء للوطن الذى يعيش فيه اليهودى . ويرى المحافظون أن تكون الصلوات اليهودية بالعبرية (وإن كانوا لم يمانعوا فى أن تتلى باللغة المحلية إن لزم الأمر) .

بعد استعراضنا لهذه الأبنية المنفصلة المركبة التى تكون ما يسمى «بالشعب اليهودي» نجد أننا لم ننتهى بعد إذ أننا يمكننا أن نضيف نوعا جديداً يسمى « باليهود السود » .

(ل) اليهود السود

هم اليهود الزنوج الذين يتواجدون بأعداد متفاوتة فى إسرائيل والولايات المتحدة ومنطقة البحر الكاريبى وليبريا ويقدر عددهم فى إسرائيل بحوالى ٣٠٠٠ شخص يتركزون فى مدينة ديمونه فى صحراء النقب وقد جاء بعضهم إلى اسرائيل من ليبريا التى ظنوا من قبل أنها وطنهم الضائع وقالوا عنها بعد ذلك أنها مجرد محطة انتقالية . وجاء بعضهم الآخر من شيكاغو فى الولايات المتحدة احتجاجا على أوضاع الزنوج هناك وكانوا قد انضموا فى أمريكا إلى جماعة من الملونين باسم (ابينا اسرائيل) يعيش أفرادها حسب الشرائع اليهودية بتشدد يفوق اليهود البيض . ويدعى اليهود السود الانتساب إلى القبائل العشرة المفقودة وفقاً لأسطورة يهودية متداولة ، وهم يؤكدون أن أنبياء اليهود كانوا من السود .

وقد ابتدعت مصطلحات لوصف نمط جديد من اليهود اسمه « اليهود الجدد » .

(م) اليهود الجدد

حينما يتحدث الصهاينة عن اليهود فهم عادة يتحدثون عن يهود شرق أوروبا نتاج الجيتو والشتتل ومناطق الاستيطان اليهودى فى روسيا ، وحينما تتحدث كتب التاريخ عامة عن اليهود فهى تتحدث عن الأقليات اليهودية المتناثرة فى العالم التى كانت توجد عادة داخل بنيات تاريخية اقطاعية أو بدوية أو حتى بدائية ، أى أن الكتابات الصهيونية وغير الصهيونية تتحدث عن اليهود فى نهاية الأمر على أنهم نتاج مجتمعات ماقبل الرأسمالية المبنية أساسا على الفصل بين الطبقات والأقليات ، إلا أن يهود الغرب واجهوا فى القرن العشرين فى عصر الصناعة والرأسمالية ، وضعا جديدا لم يواجهه أن تجمع يهودى قبل الميلاد أو بعده ، ويتلخص هذا الوضع الجديد فى أن اليهود فى البلاد الغربية قد استوعبوا إلى حد كبير فى البناء الاقتصادى للمجتمع أى أن الانعزالية الاقتصادية الجيتوية لم يعد لها وجود وأصبحت الجماهير اليهودية فى الغرب تجابه نفس المشاكل التى تجابهها بقية جماهير المجتمع . فأفراد الطبقة العاملة اليهود فى انجلترا يجابهون إلى حد كبير نفس المشاكل التى يجابهها اخوانهم من الأغيار ، وكذلك الرأسمالى اليهودى . وقد صاحب هذا ضعف واهتزاز فى الرؤية التلمودية القومية (وإن لم تكن قد اختفت تماما لأن البناء الفوقى أو الأفكار يستمر فى الوجود بعض الوقت بعد أن تزول الظروف الموضوعية التى أدت إلى ظهورها) أى أن يهود غرب أوروبا فى الولايات المتحدة (كذلك شرق أوروبا الآن بعد تطبيق النظام الاشتراكى) يختلفون اختلافا جوهريا عن يهود الجيتو . ولذلك أقترح أن نطلق عليهم اصطلاح «اليهود الجدد» كمحاولة لوصف الواقع الوجدانى الاقتصادى الجديد الذى يعيشه هؤلاء اليهود ، وكمحاولة للتفرقة بينهم وبين يهود الجيتو الذين كانوا يعملون بالتجارة والربا والذين كانوا يقفون على هامش المجتمع الزراعى (أو يعيشون فى مسامه على حد قول ماركس) .

(ن) الصابرا

كلمة عبرية مشتقة من الكلمة العربية الصبار أو «التين الشوكي» وهو مصطلح يطلق على جميع اليهود الذين يولدون على الأرض الفلسطينية ، والصابرا لهم خصائصهم الحضارية والدينية واللغوية التي تميزهم عن بقية يهود العالم . ولكن مع هذا لانعدم أن نجد اختلافات وتقسيمات داخل جيل الصابرا ، فمثلا يطلق المصطلح أحيانا على أبناء اليهود والاشكناز وحدهم دون أبناء السفارد أو الشرقيين . كما يلاحظ أن أفراد الصابرا يرتبطون بتراث آبائهم الحضاري وكثيراً مايتحدثون لغة غير العبرية في منازلهم ، وفي أحاديثهم الخاصة .

(٢) الأقليات والطوائف اليهودية في العالم سماتها وتعدادها وتوزيعها

مما سبق يمكننا أن نخلص إلى أن يهود العالم ينقسمون إلى أجناس مختلفة بل وفرق دينية عدة تتصارع فيما بينها .

وفي داخل هذا الإطار المتنوع يمكننا أن نلاحظ أنه ثمة سمات مشتركة بين الأقليات اليهودية المتناثرة وأخرى مقصورة على كل جماعة . ولعل أهم السمات المشتركة هي اشتغال أعضاء الأقليات اليهودية بالتجارة والربا والحرف الخفيفة والصناعات الاستهلاكية ولعل هذا يفسر تكدسهم في العواصم والمدن الكبيرة ، فالمدينة كانت ولازالت هي مركز النشاط المالي والتجاري والمصرفي . فمثلا مدينة نيويورك بالولايات المتحدة تضم وحدها نصف يهود الولايات المتحدة (أي تضم من اليهود مايزيد عن سكان الدولة الصهيونية) . أما بقية يهود الولايات المتحدة فهم موزعون على المدن الكبرى بحسب أهميتها ، كما أن باريس هي الأخرى تحتوي على حوالي نصف يهود فرنسا . وتضم لندن ٢٨٠ ألف يهودي من المجموع الكلي ليهود انجلترا ، أي أكثر من النصف . ونصف يهود بلجيكا يعيشون في بروكسل ، وأكثر من نصف يهود هولندا في أمستردام ، ونصف يهود بلغاريا يعيشون في صوفيا العاصمة ، ويعيش

٩٠٪ من يهود المكسيك فى مدينة مكسيكو العاصمة . ويتركز ٩٨٪ من يهود روسيا فى المدن (يعيشون فى ثلاث جمهوريات أساسية روسيا وأكرنيا وبروسيا) ولايوجد بينهم عمال صناعة أو مزارعون ، وتوجد أكبر الطوائف اليهودية الإيطالية فى روما ثم ميلانو وتورينو ، وأكبر الطوائف اليهودية فى ألمانيا توجد فى برلين وهكذا .

ولم يشذ سكان التجمع الاستيطانى الصهيونى عن هذ الاتجاه ففى اسرائيل يتكدس ٧٥٪ من المواطنين فى المدن . ولم يكن الوضع مختلفا بالنسبة ليهود البلاد العربية فمعظمهم كان يعمل بالتجارة أو فى الصناعات «اليهودية» التقليدية مثل الصباغة والحياكة ، كما أنهم كانو يعملون كدائنين بمبالغ صغيرة فى الأماكن التى لاتوجد فيها بنوك ، وكانوا يديرون أيضاً عدة بنوك . كما كان يتركز اليهود فى المهن الحرة كالطب والصيدلة والصحافة والطباعة . ولعل الوضع فى مصر والعراق مثلا واضحا على تركز الأعمال التجارية والمالية فى يد اليهود وتركز اليهود فى هذه الأعمال . ففى مصر فى عام١٩٤٤ كان الرأسماليون اليهود يساهمون فى إدارة وتوجيه ١٠٣ شركة من مجموع ٣٠٨ شركة ويسيطرون على جانب ضخم من رؤوس أموالها ، كما كانوا يديرون عديداً من البنوك والشركات الائتمانية . كما كان الممولون اليهود يمتلكون بعض الشركات الزراعية التى تقوم بامتلاك الأراضى واستغلالها والمضاربة فيها وتمويل المشروعات العقارية والصناعية ومن ضمنها شركة البحيرة المساهمة وشركة أراضى الدلتا المصرية التى كانت تمتلك ضاحية المعادى (ويمتلكها موصيرى) وشركة تجفيف الأرضى (تمتلكها عائلة سموحة ١٩٣٠) . ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين فى البورصة فى الاسكندرية كانوا من اليهود . أما فى العراق فكانت ٩٥٪ من واردات العراق و٩٠٪ من عقوده فى يد اليهود . وكنتيجة حتمية لاشتغال اليهود بالتجارة فى العالم العربى نجد أنهم تواجدوا أكثر ماتواجدوا داخل المدن فقد تركز اليهود فى مصر فى القاهرة (حى المعادى والظاهر) وفى الاسكندرية. ويلاحظ أن المعابد اليهودية

موجودة بشكل ملحوظ فى العواصم فمثلا يوجد فى القاهرة والاسكندرية عدة معابد ويقع أحد معابد القاهرة فى شارع عدلى على مقربة من البنوك والمراكز التجارية الأساسية ، كما يوجد معبد يهودى فى الاسكندرية فى شارع النبي دانيال (على مقربة أيضاً من بنوك الاسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية) .

ولعل ارتباط اليهود بالتجارة والأعمال المصرفية والاقتصاد الحر قد يفسر بعض الظواهر الخاصة بهجرتهم وتحركاتهم فى العصر الحديث . ففى كوبا كانت توجد جالية يهودية ولكن حينما نشبت الثورة الاشتراكية هناك انخفض العدد إلى العشر (فلم يبق سوى ٢,١٠٠ يهودى غالبيتهم اشكناز ويبلغ عمر الواحد منهم أكثر من خمسين عاما) ، هذا على الرغم من أن الثورة الكوبية لم تضع أى عراقيل فى طريق النشاط الصهيونى . وكانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تسىء معاملة اليهود على الإطلاق(باعترافات المراجع الصهيونية) وسمحت لهم بإنشاء مدارس يتعلمون فيها العبرية . ولقد تم تعيين أحد المواطنين الكوبيين اليهود عضوا فى مجلس الوزراء عام ١٩٥٩ . ولكن ارتباط الأقليات اليهودية بنمط انتاجى معين وبعقلية تجارية جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد . فهم كانوا « ضحايا التأميم » كما تقول أحد المراجع الإسرائيلية (ولعل هذا هو السبب فى استمرار المسألة اليهودية حتى الآن فى الاتحاد السوفيتى) .

وخروج اليهود من البلاد العربية يستحق وقفة لتفسيره . فهذا الخروج لم يكن نتيجة للاضطهاد وإنما كان نتيجة التحول البنيوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية مثل المجتمع المصري والمجتمع السورى والمجتمع الجزائرى والمجتمع العراقى ، ولا يمكن رؤية خروج اليهود كظاهرة منفصلة عن خروج أقليات « تجارية » أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين الذين لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم .

ومما عقد الأمور بالنسبة لليهود أن التجارة التى ارتبطوا بها لم تكن مرتبطة بالرأسمال المحلى وعملية الإنتاج المحلية وإنما كانت تقف عند حافة العملية الإنتاجية ومرتبطة بالرأسمال الغربى ، فكانوا يعملون بالاستيراد والتصدير أو الائتمان أو الاتجار فى المصوغات وما شابه . وهى كلها عمليات هامشية لاترتبط بالعملية الإنتاجية . وقد كان لهذا الوضع أثره على الانتماء الحضارى والنفسى للأقليات اليهودية إذ نجد أنها بدأت تفقد بالتدريج لونها وطابعها المحلى بل نسيت اللغة العربية المحلية واكتسبت معرفة بلغة التجارة فى الشرق العربى (الفرنسية) . فقد كان الصعود فى السلم الاجتماعى وتوثيق العلاقات مع الرأسماليين من الأجانب يتطلب اكتساب هذه الخبرات اللغوية والحضارية ، وقد ساعد فى هذا النشاط جماعة الاليانس اليهودية التى كانت تقوم بنشر الثقافة الفرنسية بين اليهود . ولكن من أهم العناصر التى ساهمت فى هذا الوضع الهجرة اليهودية من أوروبا إلى البلاد العربية ، فالأقليات اليهودية فى البلاد العربية (شأنها شأن أى أقلية دينية أوعرقية أخرى) كانت تتكون من عنصر محلى له انتماءاته المحددة ؛ ولكن مع بداية تحلل الامبراطورية العثمانية والاهتمام الغربى بالأسواق العربية بدأت تهاجر أعداد كبيرة من يهود أوروبا من السفارد والاشكناز ، ففى عام ١٨٣٥ كان يوجد ٥ آلاف يهودى فى مصر زاد عددهم إلى ٢٥ الف عام ١٨٩٧ عن طريق الهجرة — أى أن الأقلية تحولت من عنصر مصري عربى إلى عنصر فرنسى أوروبى . وقد تجنس يهود الجزائر بالجنسية الفرنسية عام ١٨٦٥ حينما أصدر نابليون الثالث قانونا يمنح الجنسية الفرنسية لكل الجزائريين الذين يطلبونها شرط اتباعهم قانون الأحوال المدنية . وبعد خمس سنوات (عام ١٨٧٠) صدر قانون يمنح الجنسية الفرنسية لكل الطائفة اليهودية فى الجزائر ؛ أما يهود تونس البالغ عددهم ١٠٠ ألف فكان من بينهم ٩٠ الف حاصلون على المواطنة الفرنسية . ومما شجع كثير من أعضاء الأقليات اليهودية العربية على فقدان هويتهم العربية والحصول على الجنسيات الأجنبية أن مثل هذه العملية كانت

تحقق لهم امتيازات اقتصادية وحضارية عديدة تضمن لهم حرية الحركة. وعلى سبيل المثال نجد أن يهود مصر الذين تجنسوا بالجنسيات الأوروبية المختلفة تمتعوا بحماية القناصل الأجانب ، وكان يحق لهم عرض قضاياهم على المحاكم المختلطة وقد بلغ ارتباط اليهود بالمصالح الأجنبية وضعف انتمائهم الحضارى والتجارى أن بعض اليهود كانوا يعملون قناصل للدول الأجنبية فى بلادهم .

وحيث أن الأمر كذلك نجد أن « خروج» اليهود من العالم العربى كان نتيجة حتمية لانحسار نفوذ الاستعمار الغربى الذى ارتبط اليهود به عن منطقة البلدان العربية . ولعل حالة يهود الجزائر تعتبر شاهدا صادقا على ما نقول. فقد أشرنا من قبل إلى « تفرنسهم » الاقتصادى والحضارى ولذلك حينما نشأ الصراع بين العرب الجزائريين من جهة والاستعمار الفرنسى والمستوطنين الفرنسيين من عملية أخرى وقف ٩٠٪ من يهود الجزائر فى جانب بقاء الجزائر فرنسية ، وأيدوا منظمة الجيش السرى التى تولت حملة من الإرهاب والفوضى والعنف . وقد رحل أعضاء الأقلية اليهودية عن الجزائر مع من رحلوا من المستوطنين مع أنه كانت أمامهم الفرصة للبقاء بموجب اتفاقية ايفيان . بل أن معدل هجرة اليهود من الجزائر كان يفوق معدل هجرة المستوطنين ،ففى عام ١٩٦٢ قدر أن ٢٥٪ من الأجانب غادروا الجزائر فى مقابل ٥٠٪ من اليهود . وخروج يهود عدن ارتبط هوالآخر بخروج القوات البريطانية منها نظراً لارتباطهم العضوى بالمصالح الاستعمارية الإنجليزية. وقد وجه رئيس الرابطة الإنجليزية اليهودية نداء إلى يهود عدن بضرورة مغادرتها نظراً لقرار بريطانيا بسحب قواتها خلال عامين . وقد غادرت آخر مجموعة من اليهود عدن فى طائرة خاصة بريطانية ثم أجلت القوات البريطانية بعد بعدة أشهر (نوفمبر ١٩٦٧) . أما فى مصر فقد بدأ اليهود فى الخروج فى الخمسينات بعد إجراءات التأميم والتمصير وقد خرج يهود بورسعيد مع القوات البريطانية المنسحبة (وقد قام اريه الياف عضو حزب الماباى بتنظيم هذه العملية) .

ترك يهود البلاد العربية إذن العالم العربي لارتباطهم بأنواع من التجارة الهامشية المرتبطة بالمصالح الاستعمارية مما أدى إلى اضعاف انتمائهم الحضاري. ولكن حتى لو كانت هناك فرصة ضعيفة للتأقلم مع الوضع الاقتصادي الحضاري في البلاد العربية فإن ظهور الدولة الصهيونية قد قضى عليها ؛ فقد أرسلت عملاءها إلى العراق لإرهابهم ولفرض الهجرة عليهم ، كما أنها كانت تقوم بتجنيد يهود البلاد العربية ليعملوا لحسابها (كماهو واضح في حادثة لافون) . والدعاية الصهيونية علاوة على ذلك لا تكف عن الحديث عن مفهوم « تبادل السكان » أي تبادل يهود البلاد العربية باللاجئين الفلسطينيين ، وهذا مفهوم يفترض أن يهود البلاد العربية لاينتمون إلى بلادهم وإنما ينتمون إلى الدولة الصهيونية .

ومن السمات المشتركة الأخرى بين أعضاء الأقليات اليهودية أنهم قد يحتفظون بشيء من استقلالهم إلا أنهم لايتصرفون على أساس أنهم أعضاء في قومية مستقلة إذ تظل الأوهام القومية أحلاما دينية ورغبات ومطامح مثالية لاتمس سلوكهم اليومي كثيراً. وهم عادة يتجهون للاندماج في المجتمعات التي تتيح لهم الفرصة .

فيهود الولايات المتحدة وأوروبا الغربية (أي الأغلبية الساحقة ليهود العالم) قد اندمجوا في مجتمعاتهم اقتصاديا وحضاريا لدرجة أننا نجد المراجع الصهيونية تتحدث عن خطر « الإبادة » عن طريق « الاندماج » . ويظهر الاندماج في ارتفاع نسبة الزواج المختلطة بين اليهود وأعضاء الشعب الأم ، ففي الدانمرك والمجر وهولندا واليونان أكثر من نصف الزيجات اليهودية زيجات مختلطة ، وفي الولايات المتحدة تتراوح النسبة بين ١٧٪ و٤٠٪ . وتسبب الزيجات المختلطة في ايطاليا وايرلندا وانجلترا تناقص عدد اليهود. وعلى الرغم من حديث الصهاينة وإسرائيل والمعادين للسامية عن ازدواج الولاء فإن انتماء اليهود السياسي والحضاري يتجه أساسا إلى أوطانهم ويجب التنبيه إلى أن يهود أمريكا لايعانون من أي ازدواج في الولاء لأن بلدهم

تؤيد اسرائيل . ولعل أكبر دليل على اندماج اليهود وتحدد انتمائهم هو أن إسرائيل ، على الرغم من النشاط الصهيونى المكثف ، لم تستطع أن تضم من يهود العالم إلا حوالى ١٨,٥٪ إلى جانب السمات المشتركة السابقة نجد أن لكل أقلية يهودية مشاكلها الخاصة النابعة من وجودها داخل بناء تاريخى خاص ، وقد أشرنا من قبل إلى المشكلة التى يواجهها يهود البلاد التى يسودها النمط الاشتراكى فى الإنتاج . ويواجه يهود الولايات المتحدة مشكلة الصراع مع الزنوج ، فالزنوج يتركزون فى نفس الأماكن التى يوجد فيها اليهود بل كثيراً مايشغل الزنوج نفس المنازل التى كانت تشغلها الأقلية اليهودية عند بداية استقرارها فى الولايات المتحدة فحى هارلم الشهير كان حياً يهوديا ولا تزال معظم بيوته ومحاله التجارية يمتلكها اليهود . ولكن اليهود تركوا هذا الحى نتيجة لزحف الزنوج عليه لارتفاع مستواهم الاقتصادى ونتيجة لتقبل المجتمع الأمريكى لهم بدرجة تزيد عن تقبله للزنوج . هذا الوضع الفريد يجعل من « المالك اليهودى » ممثلا للرأسمالية الأمريكية المستغلة فى نظر الزنوج مما يسبب كثيراً من المشاكل للأقلية اليهودية ككل . ويواجه يهود هولندا مشكلة عدم الامتزاج بين الاشكناز والسفارد حتى أنه يوجد لكل طائفة مدارسها . ونفس الإشكال تجابهه الأقلية اليهودية فى فرنسا ، فالمهاجرون اليهود من البلاد العربية لايتزوجون من يهود فرنسا الأصليين كما نجد أن الطوائف اليهودية لاتعترف الواحدة بالأخرى . وفى الأرجنتين تنقسم الأقلية اليهودية إلى اشكناز وسفارد ، وينقسم كل فريق إلى أقسام فرعية أخرى ، فالاشكناز ينقسمون إلى فريق المانى (يتحدث الألمانية) وفرية من أصل مجرى سلافى . أما السفارد فينقسمون إلى فريق من أصل عربى يتحدث العربية ، وفريق من أصل أسبانى يتحدث الاسبانية . ومن الطريف أن يهود اليمن كانوا ينقسمون إلى قسمين لايتزاوجان ، فيهود صنعاء كانوا

يدعون أنهم من نسل أنبل عائلات الأرض المقدسة ، أما سكان القرى فهم فى تصورهم من نسل قبائل متهودة أو من نسل العبيد ، ولهذا كانوا يرفضون الزواج من قرويات (والأمر كله فى النهاية هو انعكاس للنظام الطبقى القديم قبل الثورة) .

وتسبب العداوة المتأصلة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل كثيراً من الحرج ليهود الاتحاد السوفيتى (كما كان الحال فى فرنسا أيام ديجول) . وفى سويسرا يجابه اليهود مشكلة أن الذبح الشرعى محرم منذ أمد طويل (هذا على الرغم من أن جنيف هى مقر العديد من المنظمات والمؤسسات اليهودية وعلى الرغم من أن سويسرا هى مقر كثير من المؤتمرات اليهودية) ويحرم الذبح الشرعى فى النرويج أيضاً التى يواجه يهودها مشكلة أخرى وهى عدم وجود حاخامات مما أدى إلى قيام مرتل معبد أوسلو بمهام الحفلات الدينية والوظائف الأخرى. أما إمارة موناكو فيوجد بها حاخام ولكن لايوجد معبد ولذلك يؤدى يهود هذه الإمارة الصلاة فى مبنى يستأجرونه لهذا الغرض . ولايتزوج يهود ألمانيا الشرقية زواجا دينيا ولايمارسون الختان إلا نادرا،وفى انجلترا يجابه الجيل اليهودى القديم مشكلة انصراف اليهود عن التعليم والتقاليد اليهودية فخمسة فى المائة فقط من الأطفال اليهود يدخلون مدارس يهودية و٧٥٪ يدرسون الموضوعات اليهودية فى مدارس الأحد و٢٠٪ لايتلقون أية ثقافة يهودية على الإطلاق . (وهذا الوضع لايختلف كثيراً عن وضع يهود روسيا ومع هذا يتهم الاتحاد السوفيتى بمعاداة السامية وباضطهاد اليهود) . ومشكلة التعليم و« الانتماء اليهودى» المحدد مشكلة تواجهها كل الأقليات اليهودية فى الغرب بسبب زيادة علمانية هذه المجتمعات وانتشار العقلية الاستهلاكية التى لاتكترث كثيراً بالتاريخ أو التراث. ومما يزيد المشكلة حدة هوأن الجيل الجديد كما بينا يتزاوج زيجات مختلطة

الأمر الذى يؤدي إلى تناقص عدد الأقلية . ومن الملاحظ أن متوسط أعمار اليهود فى كثير من بلدان الغرب أعلى من متوسط العمر فى هذه البلدان بسبب اختفاء العناصر الشابة . وكل مايهمنا فى هذا المضمار هو التأكيد على أن مشاكل الأقليات اليهودية نابعة من تواجدها فى مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف وأن هذه المشاكل ليس لها أية علاقة بمقدار القرب أو البعد عن الدولة الصهيونية .

ويقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لأحدث الاحصاءات (الكتاب السنوى اليهودى لعام ١٩٧٣) بحوالى ١٤,٣٧٠,٦٥٠ يهوديا أى أنهم قلة ديموجرافية فى العالم (٤ فى الألف من سكان العالم) . وليس صحيحاً أن اليهود موجودون فى كل مكان وكل دولة لأن وجودهم فى بعض الدول هو وجود أقرب إلى الغياب ولا يمكن أخذه فى الاعتبار من الناحية الاحصائية ، إذ لا يمكننا أن نتحدث عن وجود يهودى فى دولة مثل بناما أو ايرلندا حيث لايزيد عدد اليهود فيها عن ٥ آلاف أو الصين التى يوجد فيها ٢١ يهودى متوسط أعمارهم ٦٥ عاما (وفى رواية أخرى أن عدد اليهود لايزيد عن اثنين) . وليس فى هذا تقليل من شأن الأقليات اليهودية فهم ولاشك يلعبون دوراً حضاريا لايتناسب بأى حال مع عددهم ، ولكن يجب أن توضع الأمور فى موضعها الصحيح فإسهام الأقليات اليهودية الحضارى المتميز يرجع بلاشك إلى كونهم أقلية عليها أن تثبت نفسها أمام الأغلبية (وهم فى هذا لايختلفون عن أية أقلية أخرى) كما أن معظم هذه الأقليات موجود فى الغرب بكل إمكانياته الحضارية والتكنولوجية .

والجدول التالى يعطينا صورة رقمية لتوزيع اليهود فى العالم:

(١)		(٢)	
الولايات المتحدة	٦,١١٥,٠٠٠	إيطاليا	٣٥,٠٠٠
إسرائيل	٢,٧٢٣,٠٠٠	ألمانيا	٣٢,٠٠٠
الاتحاد السوفيتى	٢,٦٤٨,٠٠٠	تركيا	٣٠,٠٠٠
فرنسا	٥٥٠,٠٠٠	شيلى	٣٠,٠٠٠
الأرجنتين	٥٠٠,٠٠٠	هولندا	٢٢,٠٠٠
بريطانيا	٤١٠,٠٠٠	سويسرا	٢٠,٠٠٠
كندا	٣٠٥,٠٠٠	السويد	١٥,٠٠٠
البرازيل	١٤٠,٠٠٠	فنزويلا	١٥,٠٠٠
جنوب أفريقيا	١١٧,٩٠٠	الهند	١٤,٠٠٠
رومانيا	٩٠,٠٠٠	تشيكوسلوفاكيا	١٤,٠٠٠
إيران	٨٠,٠٠٠	كولومبيا	١٣,٠٠٠
المجر	٨٠,٠٠٠	الحبشة	١٢,٠٠٠
استراليا	٧٠,٠٠٠	استراليا	٩,٤٠٠
أراجواى	٥٠,٠٠٠	أسبانيا	٩,٠٠٠
بلجيكا	٤٠,٥٠٠	تونس	٨,٠٠٠
المكسيك	٤٠,٠٠٠	بولندا	٨,٠٠٠
يوغوسلافيا	٧,٠٠٠	الدنمارك	٦,٠٠٠
بلغاريا	٧,٠٠٠	بيرو	٥,٣٠٠
اليونان	٦,٥٠٠	روديسيا	٥,٢٠٠

البلاد الأخرى التى تضم سكان يهود من ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠ هى:

بوليفيا — كوبا — ألمانيا الشرقية — أكوادور — مصر — فنلندا — جواتمالا — ايرلندا — العراق — جاميكا — ليبيا — لوكسمبرج — نيوزيلندا بنما — بارجواى — سوريا .

من الجدول السابق نكتشف أن اليهود يكونون أقليات صغيرة للغاية متناثرة فى أنحاء العالم ، فأكبر تجمع يهودى فى العالم فى الولايات المتحدة لايكون سوى ٢,١٢٪ من مجموع السكان (البالغ عددهم ٢٠٨,٨٤٠,٠٠٠) وثانى تجمع يهودي فى العالم يتركز فى الاتحاد السوفيتى وهو بدوره لايكون سوى ١,٠٧٪ من مجموع السكان (البالغ عددهم ٢٤٦,٢٥٩,٠٠٠) أما فى كندا فالنسبة هى ١,٣٩٪ وتقل النسبة فى البلاد الأوربية الأخرى فهم فى فرنسا مثلا يكونون ١,٠٦٪ من مجموع السكان وفى انجلترا لايكونون سوى ٠,٧٥٪ ولا يشكل اليهود أغلبية إلا فى اسرائيل وحدها .

ولكن قد يشكل اليهود من أعضاء التجمع الاستيطانى فى فلسطين الأغلبية العددية ولكنهم من ناحية الوعى والسلوك اليومى يشكلون أقلية ولاشك . وقد لاحظ بن جوريون هذا فاشتكى مرة من أن الأقلية العربية تسلك سلوك « الأغلبية » ، وأن الأغلبية اليهودية تسلك سلوك الأقلية . وفى محاولة تفسير هذا الوضع الغريب يمكننا أن نذكر العناصر الآتية :

١ — يتميز التجمع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين بعدم تماسكه الحضارى أو تجانسه العرقى فهو مجتمع يضم أقليات يهودية من جميع أنحاء العالم لهم انتماءات عرقية ودينية حضارية مختلفة ، إلا أن الانتماء الدينى لايغطى كل جوانب حياة أعضاء هذه الأقليات ، فلكل أقلية لغتها وأدبها وأسلوب حياتها . هذا على عكس « الأقلية العربية » التى قد تكون أقلية عددية إلا أنها مع هذا متماسكة متجانسة تتحدث بنفس اللغة وتنتمى إلى نفس التراث الحضارى .

٢ — مما يعقد الصورة داخل إسرائيل أن عددا كبيراً من الإسرائيليين اليهود هم « عرب » من الناحية العرقية والحضارية ، وكثيراً ماعبرت النخبة الحاكمة الاشكنازية عن مخاوفها من أن يحدث تلاقى فى المصالح ، والرؤية بين العرب المسلمين والمسيحون من ناحية والمهاجرين اليهود من

البلاد العربية من ناحية أخرى) وتوجد الآن فى إسرائيل منظمات يهودية مثل (الفهود السود والماتسبين تدخل فى تحالفات مع العرب) .

٣ - يستمد الإسرائيليون شيئا من احساسهم بهويتهم وصورتهم لأنفسهم من التراث اليهودى الذى هو بالدرجة الأولى تراث أقليات متناثرة ، كما يجب أن نضيف إلى هـذا العنصر الصهيونى الايديولوجى الحاد فى المجتمع الإسرائيلى والمبنى على التخويف من الأغيار والإحساس بالغربة والخوف من خطر الإبادة فى دولة يهودية محاطة ب ١٠٠ مليون عربى قد يقتحموا حدودها فى أية لحظة .

٤ - على العكس من هذا تستمد الأقلية العربية هويتها وصورتها لنفسها من التراث العربى ، وهى أقلية تحيا حياتها محاطة من كل جانب بكثافة سكانية عربية . وهى تعيش مؤمنة - إن صدقا أو كذبا - بأن حركة التاريخ فى صالحها وأن هذه الأغلبية اليهودية عرض زائل .

وهكذا نجد أن مشاعر الأقلية (الخوف - خطر الإبادة الخ) تسم استجابة الإسرائيليين للواقع رغم كونهم أغلبية عددية ، وأن الإحساس بالطمأنينة والثبات يمارسه عرب اسرائيل رغم أنهم يشكلون أقلية عددية ، ولذلك يصعب على الباحث أن يتحدث عن« الأغلبية » اليهودية أوعن«الأقلية» العربية فى إسرائيل .

الفصل السابع

القومية اليهودية

من استعراضنا لواقع الأقليات والطوائف اليهودية فى العالم يبين من أنه واقع مركب للغاية ومتنوع إلى حد بالغ كبير . فانتماء اليهودى أمر تحدده عدة عناصر دينية وقومية وجغرافية . وعلى ذلك فنحن إذا أردنا أن نعرف انتماء يهودى ما سألنا هل هو قرائى أم سامرى أم حاخامى تلمودى ؟ وإن كان حاخامى فهل هو حاخامى اشكنازى أم سفاردى ؟ وإن كان اشكنازى فهل هو إصلاحى أم أرثوذكسى ؟ وإن كان أرثوذكسى فهل هو انجليزى أم فرنسى ؟ وإن كان فرنسى فأى لغة يتحدث الفرنسية أم اليديشية أم العبرية — وهكذا ؟ أى أن الحديث عن انتماء يهودى موحد أو قومية يهودية هو حديث مبتسر أبعد ما يكون عن واقع الأقليات اليهودية .

ولكن مع هذا يصر الصهاينة على التحدث عن « القومية اليهودية » وعن الانتماء اليهودى الواحد . فما هى الجذور الدينية والتاريخية لهذا التصور ؟ وما هو تصور الصهيونية للقومية اليهودية ؟ ما هى انعكاساته على التجمع الاستيطانى فى فلسطين ؟

أولا — الخلفية الدينية والتاريخية

كان اليهود لاينظرون إلى أنفسهم على أنهم أعضاء فى كنيسة واحدة (كما هو الحال مع المسيحية) ولا كأعضاء فى دين واحد (كما هو الحال فى الإسلام) وإنما كانوا ينظرون إلى أنفسهم كجماعة عائلية أو ككيان متماسك

يسمى « بنواسرائيل » يربطه رباط روحى (التوراه) بل ورباط عرق ولغة مشتركة وأدب مشترك وتقاليد حضارية تاريخية مشتركة — أى أنهم كانوا يتصورون أنفسهم جماعة دينية وقومية فى ذات الوقت . بل أن بعض اليهود كان يتصور أن اليهود هم أول شعب ظهر فى التاريخ يوم أن خرجوا من مصر فى عهد الفراعنة (بإعتبار أن الفكرة القومية لم تظهر إلا فى القرن التاسع عشر) . ولكن تصور اليهود لأنفسهم يختلف عن تصور بقية الأمم لنفسها فى أن قوميتهم أو حالة كونهم شعبا(على حد المصطلح التوارتى) هى نتيجة لعلاقتهم الخاصة مع الخالق فهوالذى أخرجهم بنفسه من مصر إذ قادهم أثناء فرارهم من المصريين فكان يتحول إلى عمود دخان بالنهار يرشدهم وإلى نار مقدة بالليل تبعث فيهم الدفء ، وهو أيضاً الذى أرسل لهم الشريعة والتوراة كشعب.

ولهذا فاليهودية قومية ولكنها قومية دينية ، واليهودية فى هذا لاتختلف فى واقع الأمر كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية القديمة حيث نجد أن الدين والإله مقصوران على شعب واحد دون غيره من الشعوب . وعلى أرض واحدة دون غيرها من الأراضى ، وديانة المصريين القدماء كانت ديانة الشعب المصرى الذى يقطن أرض مصر . كما ينبغى أن نتذكر دائما أن الانتماء الوحيد المعروف فى العالم القديم والوسيط هو الانتماء الدينى ، فالمواطن الرومانى كما ينتمى إلى روما ويعبد آلهتها وأن المواطن الهندوكى كان ينتمى إلى الهند ويعبد آلهتها ، واليهودية فى هذا ليست الاستثناء وإنما القاعدة .

وتتلخص مهمة الشعب اليهودى المقدس فى أنه يقف شاهدا على التاريخ وعلى وجود الله (أمام الشعوب الأخرى) ومن هنا كان تسمية اليهود لأنفسهم بأنهم« شعب الكهنة والقديسين والأنبياء » . وكهانة اليهود ترتبط أيضاً بتصورهم أنهم أول شعب ، فحسب التقاليد الدينية اليهودية القديمة كان الأبن البكر لأى أسرة ينصب كاهنا إلى أن انحصرت الكهانة فى سبط اللاويين وحدهم

وأصبح على كل يهودى حتى الآن أن يدفع ضريبة إلى الكاهن يفتدى بها ابنه البكر ، واليهود حسب هذا التصور هم أمة الله البكر.

وتداخل العنصر الديني بالعنصر « القومى » فى اليهودية يظهر فى فكرة الشعب المختار . فالإيمان أن الشعب اليهودى قد « اختير » دون الشعوب الأخرى مقولة أساسية فى الدين اليهودى فقد جاء فى سفر التثنية (١٤-٢) « لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » . ونفس الفكرة تتواتر فى سفر اللاويين (٢٠-٢٤ ، ٢٦) « أنا الرب الحكم الذى ميزكم عن الشعوب . تكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى». ويشكر اليهودى ربه فى كل الصلوات لاختياره الشعب اليهودى ، وحينما يختار أحد المصلين لقراءة التوراة عليه لتوه أن يحمد إلهه لاختياره هذا الشعب دون الشعوب الأخرى ولمنحه إياه التوراة علامة على التميز . واختيار الله لليهود هو جوهر العهد المبرم بينه وبين ابراهيم أبو الشعب اليهودى ، وقد جدد هذا العهد فى سيناء بينه وبين موسى ممثل الشعب وقائده .

اليهودية إذن هى دين قومى وقومية دينية ، تمزج بين الوجود التاريخى المتعين والتصور الدينى المثالى ولذلك فهى ديانة لاتعرف الازدواجية ، ولا التفريق بين مدينتى الله والعالم (أوبين أورشليم المدينة المادية وأورشليم الروح السماوية) . ولهذا نجد أن الملكوت السماوى وآخرة الأيام فى اليهودية يكتسبان طابعا قوميا ، فهما يرتبطان بمجيء الماشيح الذى هو ملك من نسل داود يأتى ليعود بشعبه إلى أرض الميعاد — أى أن العالم الآخر بل وحركة التاريخ والخلاص فى اليهودية يكتسب كلها طابعا دينيـــا - قوميا (على العكس من هذا نجد أن تعاليم المسيحية فى العهد الجديد تحرر فكرة الملكوت تحريرا نهائيا من أية قيود قومية وأية آثار وثنية ، كما نجد أن فكرة الآخرة فى الإسلام منفصلة انفصالا نهائيا عن أى حدود زمنية قومية وعرقية ، كما نجد

أن التاريخ فى الإسلام هو مجال حرية الإنسان وأن الخلاص أمر فردى يجاهد من أجله المؤمن الفرد) .

ولكن على الرغم من تداخل الزمنى بالمقدس والقومى بالدينى فى اليهودية فإن فكرة « القومية اليهودية » ظلت إمكانية فكرية كامنة تعبر عن نفسها بشكل روحى عاطفى لايتعدى نطاق الصلوات والدعوات « باللقاء العام القادم فى أورشليم » (وهى صلوات ودعوات لاتختلف كثيراً عن التحية الإسلامية بعد الصلاة باللقاء فى الحرم أو عن التعبير العاطفى عن الرغبة فى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام) . وقد ظلت الفكرة كامنة لأن اليهود على الرغم من إحساسهم بأنفسهم « كشعب » إلا أن ممارساتهم اليومية كانت تقنعهم بأنهم فى واقع الأمر أقليات دينية متناثرة ومنتشرة فى العالم ، تعيش منفصلة نسبيا عن الأغلبية السائدة فى كل مجتمع ولكنها مع هذا جزء لاتتجزأ من هذا المجتمع — أى أن السمة المشتركة بين يهود العالم هى انفصالهم النسبى عن الأغلبيات التى يعيشون بين ظهرانيها ، إلى جانب ممارستهم بعض الطقوس الدينية اليهودية المختلفة ، وهم فى هذا لايختلفون عن أية أقليات دينية أخرى فالأقليات الدينية الإسلامية فى الولايات المتحدة وأفريقيا والهند تتسم بانفصالها النسبى عن الأغلبية الدينية السائدة فى المجتمع وهى أقليات تمارس أيضاً طقوسا دينية مشتركة . ولعل إحساس اليهود بواقع حياتهم هو الذى أخمد الشعور بالانتماء القومى والعرقى الوهمى ، فلم يسجل تاريخ الأقليات اليهودية أية حركات منظمة للعودة لأرض الميعاد وظل ارتباطهم بالأرض أشبه بارتباط المسيحى والمسلم بأرضيهما المقدسة .

ولكن انفراد اليهود دون غيرهم من الأقليات الدينية أو القومية المنتشرة فى العالم وخاصة فى الغرب بالاشتغال بالأعمال التجارية ثم بالربا . قد نتج عنه أن الروابط بين الأقليات اليهودية كانت بالفعل تتعدى نطاق العواطف والأفكار والأوهام واكتسبت بعداً اقتصاديا ، . وقد نتج عن كل هذا أن طبقة التجار اليهود كانت تعامل كما لو كانت « أمة داخل أمة » .

ولكن هذا الفصل الحاد بين اليهود وبقية أبناء الوطن هو نتاج عصر الزراعة الاقطاعية ، وبظهور الرأسمالية الحديثة الباحثة عن السوق القومية انهارت كل الجيوب الاقطاعية المتخلفة . ومما له دلالته أنه كان من أول أعمال الثورة الفرنسية مطالبة اليهود بالتخلي عن أوهامهم «القومية» عن أنفسهم وأن يتقبلوا انتماءهم القومي الحقيقي الوحيد وهو انتماءهم لفرنسا (والسوق القومي الموحد) ، على أن يتحول انتماؤهم اليهودي إلى انتماء ديني وحسب ، أي أن علمنة الدولة وفصل الدين عن الدولة (أو القومية) ، وهو الخطوة الأولى نحو نشوء الدولة العصرية الحديثة ، كان لابد وأن يقابله علمنة مماثلة من جانب اليهود وحسم لمسألة الدين القومي والقومية الدينية . وقد تكررت هذه الظاهرة في كل أنحاء أوروبا مع زحف الحركة القومة (البورجوازية) الحديثة فكانت الحكومة القومية أو الجماهير ذاتها تهدم حوائط الجيتو رمز الانعزال الاقتصادي ، وكان يصاحب هذه العملية انعتاق اليهود السياسي أومنحهم حقوقهم الدينية والسياسية التي تجعل منهم مواطنين لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات .

وقد وجد اليهود أنفسهم في مفترق الطرق بعد الانعتاق وبعد ظهور أنماط الحياة الجديدة التي كانت تفرض عليهم الاندماج . وقد استجاب اليهود في بادىء الأمر لهذا التحدي استجابة خلاقة فظهرت حركة الاستنارة اليهودية وحركة اليهودية الإصلاحية اللتان كانتا تناديان ببعث اليهود وتطويرهم اقتصاديا وحضاريا حتى يمكنهم التأقلم مع الاقتصاد الجديد ومع الأوضاع السياسية والحضارية التي نجمت عنه . وقدقام اليهود الإصلاحيون بإلغاء الصلوات ذات الطابع القومي اليهودي لتعميق ولاء اليهود للوطن الذي يعيش فيه وقصر انتمائه اليهودي على الدين وحده .

واليهودية الإصلاحية بمحاولتها تحويل اليهودية إلى دين وحسب واسقاط الجانب القومي إنما كانت تصدر عن رؤية حقيقية لواقع الأقليات اليهودية

فى العالم فهذه الأقليات لاتكون وحدة قومية بأية حال وإنما تنقسم إلى أقسام عدة متشابكة ومتداخلة ومتنوعة .

ثانياً — التصور الصهيونى

ولكن الصهاينة ممثلو العقلية الجيتوية والهودية التلمودية رفضوا التصنيف الإصلاحى لليهودية على أنها انتماء دينى وراحوا يعملون على تحويل الإحساس « الدينى » بالانتماء إلى شعور قومى وبرنامج سياسى .

ولكن على الرغم من محورية الفكرة القومية بالنسبة للصهاينة إلا أن التعريف الصهيونى للقومية اليهودية لايزال غير معروف على وجه الدقة . والصهاينة حقا يتفقون على أن اليهود يكونون شعبا ينتمى إلى نفس القومية ، وهم يرون بأنه شعب شرد وحرم استقلاله الفى عام (منذ أن خرب تيتوس الهيكل) وعليه أن يعود إلى أرضه معتمداً على كل الوسائل الممكنة دون انتظار الماشيح المخلص ، وهم ينادون أيضاً بأن اليهودية قومية وحسب بل إنها هى « أم القوميات » كلها ، إلا أنهم مع هذا يصرون على أن الانتماء اليهودى « القومى » يختلف فى أساسياته عن الانتماء القومى العادى . وهم محقون فى هذا إلى حد كبير فإن ما يسمى « بالقومية اليهودية » تفتقر إلى اللغة المشتركة (فالأغلبية العظمى من يهود العالم لاتعرف العبرية) كما تفتقر أيضاً إلى الأرض المشتركة والرابط الاقتصادى المشترك وهكذا . ولهذا نجد أن لكل مدرسة صهيونية تعريفها المستقل للأساس « القومى » : المشترك بين اليهود وسنحاول أن نوجز بعض هذه الأسس المختلفة .

(أ) الدين اليهودى

يحاول دعاة فكرة القومية اليهودية من الصهاينة الدينيين أن يؤكدوا الوحدة الدينية بين اليهود وأنهم « أمة مقدسة » ، ولكن الدين لايصلح أن يكون أساسا لنشوء قومية لأن الرابطة الدينية رابطة أخلاقية وليست رابطة زمنية متعينة . وعلى أى حال فإن معظم الصهاينة لايقبلون بالدين اليهودى وحده

كأساس للقومية اليهودية . ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الإسرائيليون لا « أدريون » كما أن القيادة السياسية فى إسرائيل أغلبها « ملحدون » يهود ، لا « إداريون » .كما أن القيادة السياسية فى إسرائيل أغلبها « ملحدون » يهود ، أى أنهم يؤمنون باليهودية لاكدين ولاكمجموعة من القيم الملزمة أخلاقيا وإنما كتراث فولكلورى ، ولكن عدم إيمانهم بالدين اليهودى لايسقط عنهم « قوميتهم » حسب التصور الصهيونى ذاته .

(ب) التاريخ المشترك

يدعى كثير من الصهاينة اللادينيين (السياسيين والعماليين والثقافيين) أن هناك شيئا يسمى « التاريخ اليهودى » والتراث التاريخى المشترك بين اليهود ، وأن ثمة استمرارا فى حياة اليهود الثقافية عبر تاريخهم ، وانطلاقا من هذا الزعم يؤكد الصهاينة وجود قومية يهودية . غير أن الرؤية المتفحصة بل بل والعابرة تبين أنه لايوجد تاريخ مشترك بين يهود اليمن ويهود الولايات المتحدة الذين قد توجد بينهم بعض العادات والطقوس الدينية المشتركة ، ولكن هذا يختلف اختلافا بينا عن التاريخ المشترك . فالتاريخ المشترك هو تراث تساهم فيه مجموعة من الناس وتشترك فى صنعه تحت ظروف انتاجية وثقافية ومناخية مشتركة . وتاريخ يهود اليمن هو نتاج مشاركتهم شعب اليمن العربى فى صراعهم ضد الطبقية فى ظل ظروف اقتصادية ونفسية معينة ، وهى مشاركة لم يكن يهود العالم طرفاً فيها ..

(و) معاداة السامية

يرى بعض الصهاينة أن معاداة السامية هى التى خلقت الوعى القومى اليهودى ، وهذا دقيق إلى حدما ، ففى مرحلة الاندماج والانعتاق فى أوروبا زادت الزيجات المختلطة بين اليهود والأغيار حتى كانت تصل أحيانا إلى ٨٠٪ . ولم يظهر الوعى « القومى » إلابعد عام ١٨٨١ عقب تصاعد موجات الاضطهاد ضد اليهود فى شرق أوروبا وعقب صدور قوانين مايو فى روسيا

التى حرمت على اليهود التوطن أو العمل خارج مناطق معينة حددها القانون . ويختلف تفسير ظاهرة معاداة السامية من مدرسة صهيونية لأخرى فيرى البعض أنها ظاهرة أزلية ميتافيزيقية (بنسكر وهرتزل من الصهاينة السياسيين ووايزمان من الصهاينة الروحيين) ، على حين يحاول الصهاينة العماليون تفسيرها علميا - تاريخيا . فيشيرون إلى التطور الاقتصادى الشاذ لليهود وتحولهم إلى جماعات هامشية غير منتجة من المجتمع ، ويرى الصهاينة أن الاستجابة اليهودية الحتمية لمعاداة السامية هى الهجرة إلى أرض الميعاد . وبغض النظر عن تفسير « نشأة » ظاهرة معاداة السامية ، فإنه يظل مطروحا سؤال . هل يمكن تسمية هذا الشعور بأنه شعور قومى أم أنه مجرد شعور بالاضطهاد تمارسه كل الأقليات الدينية والعرقية ، وبالتالى هل يمكن تسمية الهجرة إلى فلسطين بأنها هجرة قومية أم أنها مجرد بحث عن ملجأ أو مكان أفضل للاستثمار والحياة المستهقرة التى لايهددها شىء . وقد أثبت تاريخ الأقليات اليهودية فى العالم أن الهجرة اليهودية لم تكن قومية وإنما كانت اقتصادية وحسب فقد اتجهت الغالبية العظمى من يهود العالم فى القرن التاسع عشر والعشرين ، إلى المكان المنطقى : الولايات المتحدة ، ولم تتجه إلى المكان القومى المزعوم . فلسطين . وقد حقق المهاجرون اليهود إلى الولايات المتحدة ربحا ماديا كبيراً واستقراراً نفسيا عظيما ، ولذلك فإن عدد من يهاجر منهن إلى إسرائيل يكاد يصل إلى نقطة الصفر . وفى الفترة ما بين ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٣ لم يكن يوجد فى فلسطين سوى حوالى ١٨٠ الف مستوطن (بعضهم استوطن لأسباب دينية لاتربطها وشائج صلة بالتصورات القومية) . وفى الفترة ذاتها هاجرت آلاف مؤلفة من اليهود إلى العالم الجديد . وقد زاد عدد المستوطنين الصهاينة إلى ٦٠٠ الف وذلك بسبب الاضطهاد النازى ورفض كثير من الدول الغربية السماح لليهود بالهجرة إليها (وقد عمل الصهاينـــة على إغلاق أبواب البلاد المختلفة فى وجه المهاجرين اليهود حتى تتحول الهجرة الاقتصادية إلى هجرة قومية) .

فى ضوء ما تقدم نجد أنه لامناص من تعريف « القومية اليهودية » على أنها توهم بعض أعضاء الأقليات اليهودية فى العالم بأن انتماءهم الدينى هو انتماء عرقى ، وهو وهم لاتسانده أية مقومات موضوعية ؛ وقد جابه هذا الإحساس الزائف خطر الزوال فى القرن التاسع عشر بسبب ظهور حركتا الاستنارة والرأسماليات . ولكن هجمات المعادين للسامية ووضع اليهود الاقتصادى المتميز نوعا نسبيا فى إثارة النعرة الدينية العرقية اليهودية . وقد طرح الصهاينة مقولة الشعب اليهودى وهى مقولة تؤكد تفرد اليهود دون أي تحديد لسمات هذا التفرد ، فاليهودية دين ليس ككل الأديان ، واليهود شعب ولكنهم ليسوا مثل كل الشعوب ، وهم قومية ولكنهم ليسوا مثل كل القوميات ، واليهودى تربطه رابطه قومية فريدة بأرضه لا يمكن للأغيار فهمها . ولكن هذا التفرد فى واقع الأمر لايعدوا أن تكون تسمية ظواهر مختلفة غير مترابطة (الأقليات اليهودية) باسم واحد (الشعب اليهودى) فهو ليس تفردا بقدر ما هو خطأ فى التصنيف كأن نضع مسلمى الهند إلى جوار مسلمى مصر ومسلمى تانزانيا ثم نطلق عليهم لقب« القومية الإسلامية » فهذه القومية ستكون ولاشك فريدة فى نوعها غير قابلة للتقنين أو التفسير مثل أى ظاهرة صوفية .

هذا ويمكننا القول بأن مقولة القومية اليهودية هى فى حقيقة الأمر برنامج إصلاحى مثالى أورؤية للمستقبل وليست وصفا لما هو قائم بالفعل ، وهى مقولة مثالية تفصلها عن الواقع مسافةواسعة شاسعة ولعل أكبر دليل على مدى ضخامة المسافة بين المثل والواقع أن غالبية « الشعب اليهودى» لا يزال فى المنفى رافضا العودة لأرض الوطن الوهمى . ومن الطريف أن هرتزل أول زعيم « قومى » يهودى لم يكن يعرف العبرية وكان يتحدث الألمانية ، وكان انتماءه الألمانى واضحا ولا شبهة ، فيه ، وكانت زوجته غير مكترثة بالصهيونية أما أولاده وأحفاده فقد مات منهم من مات وانتحر منهم من انتحر خارج فلسطين أو وطن اليهود القومى المزعوم .

ثالثا — من هو اليهودى .. إذن ؟

طرحت الصهيونية مقولة « الشعب اليهودى » و« التاريخ اليهودى» المشترك ودافعت عنهما وأسست برنامجها السياسى على افتراض صحة هاتين المقولتين وعلى افتراض أن اليهودية هى دين قوى وقومية دينية . ولكن بقيام الدولة وضعت هاتان المقولتان على محك الاختبار لأول مرة فى التاريخ وتحاول إسرائيل جاهدة تعريف اليهودى صدورا عن الازدواجية الدينية القومية القديمة، فاليهودى فى إسرائيل هو من يؤمن باليهودية كدين وتراث والمولود من أم يهودية . وقد حاول بن جوريون التهرب من هذه الازدواجية باللجوء إلى نوع من الدائرية المنطقية الملتفة حول نفسها تماما مثل الأفعى البلهاء التى تعض على ذنبها بنابيها فعرف اليهودى بأنه اليهودى وكفى (والأرض أرض والسماء سماء وجهنم قيل بأنها حمراء كما قال الشاعر الخائف من بطش السلطان الذى كان يكره الاستعارة) وغنى عن البيان أن دائرية بن جوريون لم تنجح فى أن توقف جدل الواقع ، إذ أن هجرة بعض أعضاء الأقليات اليهودية من أنحاء العالم إلى فلسطين يجعل من الضرورى ومن المستحيل فى ذات الوقت تعريف اليهودى . وقد أثيرت القضية بحدة لأول مرة فى عام ١٩٥٠ (أى بعد اعلان الدولة مباشرة) بسبب هجرة بعض اليهود الذين اصطحبوا معهم زوجاتهم « الأجنبيات » أو غير اليهوديات أو المتهودات بشكل سريع على يد حاخام اصلاحى . وقد أحضر هؤلاء المهاجرون بطبيعة الحال أولادهم المنحدرين من الأمهات غير اليهوديات . ولكن لتشجيع الهجرة أصدر وزير الداخلية أمرا بالاستمرار فى تسجيل هؤلاء المهاجرين وأولادهم على أنهم يهود . وهنا ظهر اعتراض البيروقراطية الدينية اليهودية الأرثوذكسية فى إسرائيل والمهيمنة على الحياة العامة فيها . فقد أصر أعضاء هذه البيروقراطية على ضرورة تعريف اليهودى بأنه من ولد لأم يهودية وتهود على يد حاخام أرثوذكس ، حسب الشريعة اليهودية (الهالاخاه) . ومن هنا نشأت مشكلة المهاجر يوحانان شميل عام١٩٥٨ الذى تقدم بطلب شهادة تدل على أنه أعزب

كي يمكنه الزواج ولكن دار الحاخامية الكبرى رفضت تلبية طلبه لأن أمه اعتنقت اليهودية قبل زواجها في جالية يهودية غير أرثوذكسية ! وقد أصرت الحكومة على اعتباره يهوديا مما أدى إلى انسحاب الحزب الديني القومي من الائتلاف الوزاري عام ١٩٥٨

ويبدو أنه لترضية الأحزاب الدينية اطلقت يدها في مسألة اعتماد من هو اليهودي ، وفي نهاية عام ١٩٥٩ أرسل التوجيه التالي لموظفي وزارة الداخلية « يسجل كيهودي كل من ولد من أم يهودية وليس له دين آخر وكل من تهود حسب الشريعة » وعادت الأحزاب الدينية إلى الائتلاف الوزاري بناء على تلك الترضية . وبسبب هذا التعريف المتشدد نجد أن المسألة بدأت تتفاقم فهناك مثلا حالة المرأة التي ولدت لأب يهودي ولأم مسيحية واعتبرها النازيون يهودية والقي بها في أحد المعسكرات ، ثم هاجرت لإسرائيل حيث أخبروها أنها ليست يهودية فغادرت إسرائيل وهي تقول في مرارة « خير عندي أن أكون يهودية في بلد أجنبي من أن أعتبر مسيحية في اسرائيل » . ثم هناك قضية الشاب الهولندي حانان بيرتلك الذي هاجر إلى إسرائيل وجند فور وصوله في إحدى فرق الناحال العسكرية وفقد ساقيه بعد شهر واحد من وصوله أثناء إحدى المعارك مع الفلسطينيين العرب عام ١٩٦٨ ولم يعامل مثل زملائه بدعوى أن أمه مسيحية (وقد بين بعض المحتجين أن أحد زعماء فتح في القدس يعد يهوديا بالمقياس العرفي لأن أمه يهودية على الرغم من أنه عربي يعتنق الإسلام). وتوجد كذلك حالة المواطنة الإسرائيلية هيلين زيدمان الأمريكية المولد التي اعتنقت الديانة اليهودية على يد حاخام اصلاحي ولكن دار الحاخامية الكبرى في إسرائيل لم تعترف بمراسم التهود . وقد حل موشيه ديان مشكلتها بأن أوحى للحاخام جورين حاخام الجيش الإسرائيلي بأن يهودها حسب المراسم الأرثوذكسية حقنا للدماء . وقد قام الجنرال - الحاخام بذلك ولكن سلوكه هذا أغضب اللادينيين لأن فيه تنازل لدار الحاخامية ، وأغضب المتدينين لأن فيه تنازل عن التقاليد الدينية المتشددة . ويبدو أنه قد فكر أحدهم في انشاء «معهد للهداية

للهداية السريعة » مثل معاهد تلقين اللغة العبرية للمهاجرين بحيث يأتى المهاجر فيخلع ملابسه القديمة ويلبس ملابسه وهويته الإسرائيلية ثم يرتدى قبعته وعقيدته الجديدة دون اضاعة أى وقت ودون إثارة أى مشاكل .

ومسألة تعريف اليهودى لاتسبب مشاكل للأفراد وحسب وإنما تسبب نفس المشاكل وربما بشكل أكثر حدة لجماعات بأكملها داخل إسرائيل . فيهود الهند المعروفون ببنى إسرائيل هاجروا إلى اسرائيل بعد أن لوحت لهم الحركة الصهيونية بالمستقبل الزاهر الذى ينتظرهم فى أرض الأجداد ولكنهم حينما وصلوا إلى هناك فوجئوا بأن دار الحاخامية الكبرى راحت تشكك فى يهوديتهم لاختلاف قوانين الأسرة الخاصة بهم عن القوانين الحاخامية المعمول بها فى إسرائيل فهم يتزاوجون من غير اليهود ويمارسون الزواج المختلط . ولم يلاق يهود الفالاشاه مصيراً مختلفا فهم أيضاً لايعرفون التلمود مما جعل اسرائيل تقوم بارسال المساعدات والمدرسين لهم لتعليمهم العبرية ولكنها لاتشجعهم على الهجرة ، أى أن عليهم ممارسة « قوميتهم » المزعومة عن بعد أو بالمراسلة .

وهذه المشكلة تتفاقم إلى حد يصبح لها فيه جوانب كوميدية ، فقد قرأ بن جوريون مرة فى كتاب عن مواطن اسرائيلى كان مسيحيا ثم اعتنق اليهودية وختن وعانى بسبب يهوديته على يد الألمان النازيين . ثم هاجر إلى إسرائيل طبقا لقانون العودة وتزوج من امرأة يهودية وعاشا ترفرف عليهما السعادة الزوجية إلى أن دبت بينهما بعض الخلافات الزوجية التى قد تنشأ بين أى زوجين . لكن فى إسرائيل اكتسبت المشكلة الزوجية أبعاد قومية دينية واستغلت الزوجة المشكلة للحصول على الطلاق العاجل من زوجها ، وأعلنت أن زوجها مامزير أو طفل غير شرعى لأن أمه — والعياذ بالله — مسيحية . وقد كتب بن جوريون غاضبا للحكومة من أجل هذا المواطن الإسرائيلى المطلق فردت الحكومة الصهيونية على الزعيم الصهيونى وأخبرته أن المواطن المذكور قد سويت حالته والحمد لله . ولكن الكوميديا لم تنته عند هذه النهاية السعيدة

فقد قرأ المواطن المطلق الخبر فى جريدة معاريف بمحض الصدفة فسارع بالكتابة لرئيسة الوزراء محتجا بأن لم يسمع من قبل عن تسوية حالته وأخبرها أنه ، أولى من غيره بأن يعرف تفاصيل هذه التسوية إن كانت قد تمت بالفعل (ولاشك فى أن بن جوريون قد اهتم بالموضوع لأسباب موضوعية قومية ، ولكن لايمكن استبعاد العامل الشخصى لأن حفيد الزعيم الصهيونى حسب القانون التلمودى هو الآخر مامزير لأن أمه مسيحية تهودت) .

ويختلط الحابل بالنابل فنجد أن حركة الكنعانيين تنادى بأنه لايوجد شىء يدعى « يهودى » فى إسرائيل ، إذ أن اليهودية إن هى إلا انحراف عن القومية الكنعانية قومية سكان فلسطين أو أرض كنعان الأصليين من العبرانيين قبل أن يعتنقوا اليهودية ولذا ينادى الكنعانيين بأنه على العائدين إلى الأرض مسلمين كانوا أم مسيحيين أم يهودا أن يتخلوا عن أديانهم ليصبحوا مرة أخرى أعضاء فى القومية الكنعانية الجديدة . وحينما ينظر الإسرائيليون الأطهار إلى يهود الدياسبورا فإنهم يرون فيهم يهودا غير مرتبطين روحيا بالوطن اليهودى ، يتزاوجون مع الأغيار — أى أنهم يهود مشكوك فى يهوديتهم باستخدام المعيار العرقى . وحينما ينظر يهود الأقليات فى العالم بدورهم إلى إسرائيل فهم يرون بلدا علمانيا خاليا من كل مظاهر الحياة الدينية الحقة أى أن الإسرائيليين مشكوك فى يهوديتهم بالمعيار الدينى وهكذا ننتهى إلى انطباع واضح بأنه لايوجد يهود فى العالم .

ومما ينبغى ملاحظته أن الصراع حول من هو اليهودى كثيراً ما تكون له جذور سياسية — فقد أثيرت قضية السيدة ريتا ايتانى ممثلة حزب الماباى فى المجلس البلدى للناصرة سنة ١٩٦٠ حينما عارضت فى تقديم المساعدة المالية لإحدى المدارس التابعة للهيئات الدينية فى إسرائيل فحينئذ ثارت ثائرة الحزب الدينى القومى الذى كان يشغل ممثله حينئذ منصب وزير الداخلية فبحث فى ماضى السيدة ايتانى إلى أن حصل على معلومات مؤكدة من وطنها الأصلى ألمانيا (مستعينا بالسجلات النازية الخاصة بالآريين) ثبت منها أن أمها ليست

يهودية وأنها لم تعتنق اليهودية طيلة حياتها : وهذا على الرغم من أن السيدة اتيانى قد حمت زوجها اليهودى من النازيين ولم تتنكر له فى وقت محنته وهاجرت إلى فلسطين معه واشتركت فى الأعمال الاستيطانية العسكرية . وحينما أعلنت عن رغبتها فى اعتناق اليهودية بشكل رسمى رفض طلبها لأن الظروف التى طلبت تحتها التهود تدل على عدم اخلاص النية .

وهكذا نرى من جميع الحالات السابقة أن مصدر البلبلة هو عدم الوضوح فى اعتماد الانتماء الدينى أو العنصرى أو كليهما وازدواج المعايير التى تستخدم لتقرير من هو اليهودى . وقد تبلورت هذه الازدواجية ووضح عجز الحكومة والشعب الإسرائيليين على حل هذا الاستقطاب وذلك فى قضيتى الراهب الكاثوليكى الأخ دانيال، والضابط البحرى بنيامين شاليط .

وتتلخص قضية الراهب دانيال فى أنه ولد لابوين يهوديين وكان عضوا عاملا فى إحدى الحركات الصهيونية الدينية ، وقضى عامين كاملين يتدرب على حياة الرواد لكى يهاجر إلى فلسطين ، ثم قبض عليه ولكنه استطاع أن يقنع الألمان أنه المانى وعمل داخل الجيستابو وتمكن من انقاذ ١٥٠ يهودى، ثم قبض عليه مرة أخرى ولكنه استطاع أن يهرب متنكراً فى زى راهبة ولجأ إلى دير الراهبات الكاثوليكيات حيث اختبأ طيلة ١٦ شهراً ثم اعتنق الديانة الكاثوليكية وهاجر إلى إسرائيل وطلب الجنسية بموجب قانون العودة . وقد عرضت عليه المواطنة الإسرائيلية بواسطة التجنس ولكنه رفض ، وأصر على اعتباره يهوديا بالمعنى العرقى للكلمة . ثم قام الراهب دانيال برفع قضية أمام محكمة العدل العليا فى إسرائيل التى أصدرت حكمها (عام ١٩٦٢) والذى نص على أن اليهودى الذى يعتنق ديانة أخرى لايحق له التمتع بالامتياز الممنوح لليهود فى ظل قانون العودة — أى أن المحكمة قبلت (المعيار الدينى) لتقرير من هو اليهودى .

ومن المفروض أن المحكمة العليا تقوم بإرساء قواعد دستورية ثابتة للدولة والشعب ، وأنها باعتمادها المقياس الدينى للقومية اليهودية قد حددت المشكلة ،

ولكن الحكم فى قضية شاليط يثبت أن المحكمة العليا الإسرائيلية لاتقل فى بلبلتها عن الحكومة والشعب الإسرائيليين . وقبل أن نعرض لقضية شاليط قد يكون من المفيد أن نشير إلى أنه نظراً لظروف إسرائيل الاستيطانية الإحلالية تكتسب بطاقة الهوية دلالة خاصة إذ يجب على كل مواطن أن يحمل طول الوقت هذه البطاقة كما أن هذه البطاقة لابد وأن تحمل وصفا له ولشعره ولانتمائه الدينى والعرقى . ولكن إلى جوار وضع اسرائيل الخاص يوجد وضع « القومية اليهودية » الخاص أيضاً ، لذا نجد أن فى هذه البطاقة خانة للجنسية وهذه تترتب على المولد أو الهجرة ، ولذلك يصنف المهاجر اليهودى إلى إسرائيل وكذا المواطن العربى المقيم فيها على أنهم يحملون الجنسية الإسرائيلية . يبقى بعد هذا خانتان واحدة للدين وأخرى للقومية وهاتان الخانتان لايربطهما رابط فى أى بلد فى العالم كما أن هذا هو الحال أيضاً بالنسبة لغير اليهود فى إسرائيل ، فالمواطن العربى يكتب فى خانة القومية كلمة « عربى » وفى خانة الدين يكتب انتماءه الدينى (مسلم أو مسيحى) وأما بالنسبة لليهود فالأمر يختلف قليلا إذ لابد وأن تتطابق خانة القومية مع خانة الدين فالقومية يهودى والدين أيضاً يهودى . وذلك صدورا عن الازدواجية القومية الدينية .

وقد وضع الضابط البحرى بنيامين شاليط كل هذا الهراء على المحك ، وتتلخص قصته فى أنه تزوج من أجنبية (أى مسيحية) ثم تقدم لوزارة الداخلية لتسجيل طفليه (جاليا وعمرها ٣ سنوات وأوين وعمره ٦ سنوات) فملأ البند الخاص بالقومية بكلمة « يهودى » أما فى مقابل بند الدين فقد دون كلمة « لاتسجيل » ، بمعنى أن طفليه يهوديان بالمعنى العرقى وليس بالمعنى الدينى . ولكن المسئول رفض وضع الانتماء العرقى اليهودى مقابل خانة القومية طالما أن خانة الدين أو المذهب بقيت دون تحديد ، فرفع شاليط قضية أمام محكمة العدل العليا (عام ١٩٧٠) التى حكمت بأن أولاد شاليط يهود من الناحية العرقية دون أن يعتنقوا اليهودية ، أى أن المحكمة قبلت المعيار القومى وحده لتقرير من هو اليهودى وإن كانت المحكمة استندت فى

حكمها إلى نقطة فنية وليس إلى مبدأ ، فقد استندت إلى أن التوجيه الإدارى لم يخول « المسجل الحكومى أن يرفض تسجيل الأطفال حسب رغبة أبائهم » وقد ثارت ثائرة الأرثوذكس والأحزاب الدينية لأن هذا فى تصورهم سيقسم الدولة إلى يهود يؤمنون باليهودية ويهود لايؤمنون بها (الأمر الذى قد يخلق هوة سحيقة تفصل بين اسرائيل والدياسبورا) كما يؤكد الأرثوذكس أن يهود هذه الأيام المستوطنين فى فلسطين سيظهرون بمظهر الغزاة الامبرياليين إن لم يؤمنوا بالعهد الإلهى بين الخالق والشعب وإن لم يستند حقهم فى أرض فلسطين إلى هذا الإيمـان والأرثوذكس محقون فى هذا تماما ، ولكن ما لا يدركونه أن إيمانهم بمقولاتهم الغيبية لا يحولها بأية حال إلى حقائق ثابتة قائمة،فالإيمان بالرؤية أو الأسطورة الذاتية مهما بلغ صدقه لايضفى أى شرعية على هذه الرؤية أو الأسطورة .

ومما عقد المسألة أنه لتحاشى تكرار مآسى من النوع الشاليطى أصدرت الحكومة الإسرائيلية قرارا بتعريف « اليهودى » (وكأن الانتماء الدينى القومى الحقيقى يحتاج لقرار حكومى) بأنه من ولد،لأم يهودية أو تهود ولاينتمى إلى دين آخر (لتحاشى مآسى من النوع الدانيالى) . ولم يذكر القرار عبارة « بموجب الشرع اليهودى» . والغرض من هذا التعريف هو ربط الدين بالقومية وبالتالى ربط الإسرائيليين بيهود العالم باعتبار أنهم كلهم ينتمون إلى القومية اليهودية (وفى هذا اتساق مع الرؤية الصهيونية التى تطابق بين القومية والدين) . وهذا التشدد فى التعريف يصاحبه تساهل ظاهرى يتضح فى إسقاط عبارة « بموجب الشرع اليهودى » ؛ ولكن التساهل لايتناقض مع التشدد لأنه إذا كان الغرض من التشدد هو الإصرار على « وحدة يهودية » وهمية فإن التساهل يهدف إلى تدعيمها ، لأن ذكر عبارة « الشرع اليهودى» سيؤدى إلى تحويل ملايين اليهود الأمريكيين إلى أجانب غير يهود لاينتمون إلى « القومية اليهودية » لأنهم ينتمون إلى اليهودية الإصلاحية التى لايعترف بها الأرثوذكس ،كما أن كثيراً منهم يتزوج من مسيحيات أجنبيات يتهود

بعضهن ولا يهود البعض الآخر ولكن حتى من يتهودون فانهن يتهود على يد حاخامات اصلاحيين لاتعترف بهم دار الحاخامية . كما أن ذكر العبارة المتشددة آنفة الذكر سيؤدى إلى قطع سبل الهجرة الاشكنازية من الاتحاد السوفيتى لأن عديدا من هؤلاء المهاجرين السوفيت مندمجين فى مجتمعهم غير مبقين على ولائهم لقوميتهم اليهودية الوهمية ولذلك يتزاوجون من أجنبيات غير يهوديات وينجبون أطفالا مامزير . وهذه الصيغة المتشددة - المتسامحة تحقق أيضاً أبعادا ايديولوجية للصهاينة فالتساهل يوسع الصيغة بما فيه الكفاية لتضم المواطن الأمريكى اليهودى وبالتالى لتبعده عن وطنه وعن انتمائه القومى الحقيقى ، إذ أنه حسب هذا التصور نجد هذا المواطن الأمريكى اليهودى نفسه يحمل جنسية أمريكية ولكنه فى ذات الوقت عضو فى « قومية يهودية » مما يجعل من العسير عليه تحقيق أى اندماج حضارى أو نفسى فى مجتمعه ومما يجعله تحت ضغط نفسى أن يدفع تبرعاته بانتظام لتمويل المشروع الاستيطانى فهو مشروعه القومى — أى أن التساهل يحقق الحد الأدنى الوهمى المشترك بين يهود العالم ويهود اسرائيل . أما التشدد فالغرض منه إبعاد الإسرائيليين عن واقعهم الاقتصادى (الإنسانى والتاريخى المتعين) حتى يظلوا أعضاء فى « القومية اليهودية » الوهمية ولايصبحوا أعضاء فى قومية جديدة علمانية تنشأ فى فلسطين وتعبر عن واقعهم التاريخى . هذا إلى جانب أن تعديل قانون العودة لايؤثر من قريب أو بعيد على هيمنة دار الحاخامية الكبرى على قوانين الأحوال الشخصية وعلى حياة المواطن الإسرائيلى ، فدار الحاخامية وحدها هى التى تقرر من هو اليهودى فى أحوال الزواج والطلاق والوفاة ، أى أن التسامح هو مجرد المصيدة الصهيونية للمهاجرين ليحضروا إلى أرض الميعاد ثم بعدها تتولى دار الحاخامية أمرهم . واستراتيجية التشدد والتسامح هى فى نهاية الأمر استراتيجية تشدد وحسب فالتسامح لايمتد للحياة اليهودية فى العالم ككل وإنما يمتد لجزئية الهجرة ، ولكن التشدد يمتد ليشمل حياة الإسرائيليين فى كل تفاصيلها وعن طريق قولبة حياة الإسرائيليين وصبغها بصبغة

يهودية لا أثر فيها للحضارات الأخرى تؤيد الحركة الصهيونية أن يكون يهود إسرائيل هم المثل الأعلى فى اليهودية الخالصة — وهذه اليهودية الخالصة المتشددة ستترك أثرها على يهود العـــالم حتى ولو لم تطبق عليهم القوانين اليهودية المتشددة . وقد صرحت مرة جولدا مائير أن التساهل فى داخل إسرائيل سيؤدى إلى الاندماج فى الخارج وأن فى علمانية إسرائيل اندماج وانصهار وإبادة للدياسبورا ، وبالتالى لابد من التشدد حتى تحقق الصهيونية التمركز اليهودى حول الذات .

وقد سقط ضحية هذا التعريف المتشدد فى الداخل والمتساهل فى الخارج الابن الثالث لبنيامين شاليط ، فقد تقدم الضابط المذكور لتسجيل ابنه كيهودى أسوة بأخويه ولكن رفض طلبه بسبب تعديل القانون . وبهذا نجد أن عائلة شاليط الآن هى أغرب عائلة فى العالم تتكون من أم يهودية من أصل مسيحى وأب يهودى لاديني تعترف الدولة بالشق القومى من يهوديته وابنين مامزير أو غير شرعيين (رغم أن أبويهما متزوجان) وهما ابنان تعترف الدولة بالشق القومى من يهوديتهما ، أما الابن الثالث فهو مامزير ويهودى أيضاً ولكن لا تعترف الدولة بيهوديته القومية أو الدينية وهذه هى النتيجة الكوميدية الحتمية لتقرير الهوية عن طريق قرار وزارىعاجل . وقد دعت مجلةهآرتس إلى الغاء التسجيل بالنسبة إلى القومية والدين فى سجلات السكان وفى بطاقات الهوية الشخصية كحل للمشكلة (وقد حاولت المحكمة العليا من قبل تحاشى نظر قضية شاليط عن طريق المطالبة بشطب بند « القومية اليهودية » من بطاقة الهوية) ، وفى هذا عودة إلى الدائرة البنجوريونية الرائعة التى تحاول حسم التناقضات بتجاهلها إذ أننا لوشطبنا القومية فستظل مع هذا مشكلة الانتماء القومى الحقيقى للإسرائيليين قائمة .

وقد اعترض مؤخراً المواطن الإسرائيلى جورج طامارين ، وهو محاضر فى علم النفس فى جامعة تل أبيب ، طرد من الجامعة بسبب آرائه المعادية للدين، على الازدواجية الدينية - القومية وقد كان هذا المواطن قد سجل على

أنه يهودى القومية دون دين ، ولكنه بعد قانون ١٩٧٠ طلب تغيير تسجيله واسقاط كلمة « يهودى » القومية لأنها أصبحت تسمية عنصرية وطلب تسجيله على أنه « اسرائيلى » القومية . ونلاحظ أن تحدى طامارين لقوانين اسرائيل العنصرية العنيبية أكثر فورية من تحدى شاليط أوالأخ دانيال لها فالأخ دانيال وشاليط لايتحديان مفهوم القومية اليهودية بقدر تحديهما لترابط بين هذه القومية والدين اليهودى أى أنهم يؤمنون بمقولة « القومية اليهودية » التى تضم كل يهود العالم . أما طامالين فهو يتساءل لاعن مدى الوحدة بين القومية اليهودية والدين اليهودى وإنما يتساءل عن مدى الوحدة بين الإسرائيليين ويهود العالم ، وفى هذا خطوة للأمام واقتراب من الواقع . وغنى عن البيان أن طلبه قد رفض لأن هذا — حسبما جاء فى تبرير الرفض سيقسم يهود العالم إلى أمة يهودية وأخرى اسرائيلية .

ولاتزال القضية قائمة دون أن تحسم (وتنفجر الأزمة من آونة لأخرى وبشكل حاد مسببة كثيراً من الأزمات الحكومية ، كما تثار القضية عند تأليف الوزارات الإسرائيلية إذ تصر الأحزاب الدينية على إثارة المشكلة وتساوم الجناح العمالى لتمنحه التأييد نظير التنازلات المتتالية . وقد ارتفع ثمن تأييد الأحزاب الدينية بسبب التوازن الدقيق وموازين القوى فى الساحة الإسرائيلية السياسية ، فهى تطالب بتعديل قانون العودة حتى يعرف من هويهودى بالمعيار العرقى الدينى التقليدى المتشدد . ويرد الصهاينة العماليون (بعد حرب ٧٣ على وجه الخصوص) بأن الوضع فى اسرائيل يحتاج إلى مزيد من المهاجرين وأن التشدد فى تعريف من هو اليهودى لايشجع على الهجرة من الدياسبورا . وقد ردت الأحزاب الدينية أثناء المشاورات الأخيرة بأنه إذا كان الأمر فعلا فى حالة أزمة فإنها على استعداد لإسقاط النقطة الخاصة بقانون العودة إذا ماسمح لتجمع ليكود اليمنى الرأسمالى بدخول الوزارة — أى أن الصراعات الدينية فى إسرائيل هى فى أحد جوانبها تعبير عن واقع سياسى وهذه هى إحدى سمات العصور الوسطى حين كانت تأخذ الصراعات

السياسية والاجتماعية شكل حروب طائفية ودينية ؛ وإسرائيل التى تعيش بوجدانها التلمودى ولاتملك إلا أن تترجم حقائق صراعاتها السياسية إلى صيغ دينيـــة .

وعلى الرغم من كل هذا الكر والفر الإسرائيليين فإننا يمكننا القول بأن الدولة اليهودية لم تصل حتى الآن لتعريف من هو اليهودى . وما من شك فى أن فشل التعريف هو نتيجة حتمية لمحاولة التلاعب بالألفاظ والتصنيفات وفرض مصطلح واحد على أقليات بشرية مختلفة لاتنتظمها وحدة أى أنها فى نهاية الأمر محاولة فرض أسطورة بسيطة تسمى « الشعب اليهودى الواحد » أو « القومية اليهودية » على واقع تاريخى جدلى يتكون من الأقليات اليهودية ذات الانتماءات القومية الطائفية المتعددة ويظل المخرج الوحيد هو الحل الإصلاحى الذى يحول اليهودية إلى انتماء دينى وحسب، وبذا تتحول اليهودية إلى دين عصرى يتخلى عن وثنيته الدينية - القومية .

أهم المراجع

أولا — المراجع العربية :

بن آريا وآخرون : شتات إسرائيل (القاهرة : مصلحة الاستعلامات ١٩٦٩) (غير منشور) .

ديورانت ، ول : قصة الحضارة ترجمة محمد بدران (القاهرة : جامعة الدول العربية ، الطبعة الأولى من الأجزاء الخمسة عشرة التى نشرت ما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٤) .

رزوق ، أسعد : قضايا الدين والمجتمع فى إسرائيل (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) .

ظاظا ، حسن : الفكر الدينى الإسرائيلى : أطواره ومذاهبه (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) .

عبده ، ابراهيم ، وقاسمية ، خيرية : يهود البلاد العربية (بيروت : مركز الأبحاث ١٩٧١) .

ليون ، أبراهام : الماركسية والمسألة اليهودية ترجمة وتقديم عماد نويهض (بيروت : دار الطليعة ١٩٦٩) .

ماركس ، كارل : المسألة اليهودية (أى ترجمة عربية) .

المسيرى ، عبد الوهاب : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، بالأهرام ١٩٧٥) .

نهاية التاريخ (القاهرة : مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالأهرام ١٩٧٣) .

ثانيا – المراجع الأجنبية :

(أ) الكتب :

Baron, Salo W. : **A Social and Religious History of the Jews** (New York : Columbia University Press, 1966).

Grayzel, Solomon : **A History of the Jews** (New York : Mentor Books, 1968).

Roth, Cecil : **A Short History of the Jewish People** (London : East and West Library, 1963).

Sachar, H. Morley : **The Course of Modern Jewish History** (N.Y. : Dell, 1958).

(ب) الموســوعات :

Ferm Vergilius (ed.) : **An Encyclopedia of Religion** (New York : Philosophical Library, 1945).

Patai, Raphael (ed.) : **Encyclopedia of Zionism and Israel** (New York : Herzl Press and McGraw Hill, 1971).

Roth, Cecil (ed.) : **Encyclopedia Judaica**, 16 Volumes (Jerusalem : Keter House, 1972).

Roth, Cecil, and Wigoder, Geoffrey (eds.) : **The Standard Jewish Encyclopedia** (London : W. H. Allen, 1966).

Worblowsky, R. J. Zwi, and Wigoder, Geoffrey : **Encyclopedia of the Jewish Religion** (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966).

فهرس

صفحة

القسم الثانى

يهود العالم والادعاء القومى

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٣٠ — ١٩٧٥

دار « نافع » للطباعة ت : ٩٠٠١١٨